رواية

Novel

يورو

euro

نذير الزعبي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



نذير الزعبي



www.zuabi.net



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2677-7

توزيع


عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: نذير الزعبي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الإهداء

إلى محمصة خبز زرقاء، ومحرك قارب صغير بمروحةٍ صدئة، ومكواةٍ قديمة، ومفتاح ربطٍ كبير أحمر اللون، برأسٍ أسود.

«It’s just the three of us.
You, me, and this brick wall you built between us.»

***SpongeBob SquarePants**

أثينا – اليونانAthens-Greece |

خرجَت الشاحنةُ من مرآب البنك المركزي وسارت وسط الضوضاء في شوارع المدينة، دون أن ندري حينها أين نحن، وإلى أين يأخذوننا.

كنا مرصوصين على هيئة أعمدةٍ ملفوفة بأغلفة ورقية مكدّسة داخل صناديق خشبية. حين أُزيل عنا الغلافُ الورقي، انسكبنا كالماء الدافق في أحد أدراج البنك الصغير إلى حيث انتهت رحلتنا. اصطدمتُ عندها وجهاً لوجه بيورو قديم، فأحدثنا معاً رنيناً أعادني صوتُه إلى ذكرىً بدت قريبة: لحظة خروجي إلى الحياة في مصنع العملات المعدنية مطلقاً رنيني الأول، كصرخة الطفل عند ولادته.

أمضيتُ في ذلك الدرج ما يقاربُ الأسبوع، لا أفعل شيئاً سوى التحدث إلى اليورو القديم. كان أول أصدقائي، ظل وجهي ملاصقاً لوجهه طوال الوقت، ملاصقاً تماماً.. هل جربتَ التحدثَ إلى أحدٍ ما بهذه الوضعية الغريبة؟ لقد اعتدنا مثل هذه الوضعيات المضحكة في علاقاتنا، لكن هذا لا ينفي أن لكم أيضاً وضعياتٍ وحركاتٍ نراها نحنُ مضحكةً وغايةً في الغرابة؛ أتذكر عندما رأيتُ لأول مرة إنساناً يركض، ضحكتُ كثيراً ولم أفهم ما يفعله، لكن مع الوقت، علمتُ بأنها طريقتكم في التدحرج.

من ذلك الصديق، عرفتُ من أنا وأين كنت وأين نحن وكيف وصلت إلى هناك، وما معنى المدينة والبنوك والشاحنات والصناديق، ومن صنع كل هذا، وما يكونُ هذا الذي يُدعى الإنسان، ولماذا يفوقنا حجماً بهذا الشكل الغريب؛ إذ كان حجمُ يد الموظف يصيبني بالدهشة كلما مدها داخل الدرج لانتشال بعض النقودِ من حولي. إلى أن جاء دوري بأن كنتُ من بين القطع التي انتشلها بخفةٍ وقلّبها في يده، ثم ناولنا إلى العميل الذي سارع بإلقائنا في جيب بنطاله، وسار بنا خارجاً نحو الضجيج.

لم تكن الإجابات التي خرجتُ بها من الدرج كافيةً لفهم كل شيء، ولا كفيلةً بكبح اندهاشي.. إنه عالم غريب.. عالم كبير.. لم أكن فيه سوى قطعة نقدية صغيرة، لا تزال خاليةً من الخدوش.

»ستحتاج إلى قليل من الوقت، كي يصير بمقدورك الرؤية في الأماكن المعتمة، وإلى كثير من الإنصات، كي ترى ما وراء تلك العتمة.«

سحبني الرجلُ من عتمة جيبه ودسّني في فتحةٍ عمودية، هويتُ من خلالها إلى مكانٍ أشد عتمة. لم أحتج حينها إلى صديق أكثر خبرةً مني ليخبرني باسم ذلك الشعور الجديد، أو يحدثني عن أسبابه، وما الذي يفعلهُ بنا إذا ما تسلل إلى جوفنا. لا أعلم إن كان خوفاً من الظلام أو من جهلي بالمكان الذي ألقيتُ فيه، غير أن صوت الرنين الذي أحدثه ارتطامي خفف من وطأته، فقد تعلمت أن ذلك الرنين الحاد يعني دائماً أني لستُ وحدي. صحت: «هل من أحدٍ هنا؟ هل من نقودٍ في هذا المكان؟» فتنامت أصواتُ غمغماتٍ، قطعها فجأةً صوتٌ أجشٌّ غاضب، جاء من زاويةٍ بعيدة: «لماذا تصرخُ هكذا أيها الجديدُ الأحمق.. ألا ترانا نائمين؟».

اجتثَّ ذلك الصوتُ من قلبي خوفَ العتمة والمجهول، غارساً محله خوفاً أشدَّ وطأةً.. الخوف من أشباهي.

هز ارتعاشي قطعةً نقدية بجانبي، فوجدتها تهمس لي بإشفاق: «ما الذي يخيفك أيها الجديد المسكين؟ ليست سوى قطعةٍ نقديةٍ مثلك، بلا حولٍ ولا قوةٍ إلا في يد الإنسان، ولن تقدر على إيذائك مهما زادت خدوشها أو فاقتك حجماً أو حتى قدرةً شرائية»، ثم أخبرتني بأن ذلك المكان المعتم ليس

سوى صندوق نقود داخل ماكينة علبِ مشروبات غازية، وبأننا سنُسحبُ منه قريباً من قِبَل موظف التحصيل، ونؤخذ إلى مكانٍ مضيء.

وهكذا بدأتُ التنقلَ من مكانٍ إلى مكان، ومن جيبٍ إلى جيب، في رحلةٍ مليئةٍ بالمغامرات والتجارب أصبحتُ بعدها يورو قديماً، لديه من خبرة الحياةِ في وقتٍ قصير ما تحتاجون أنتم عمراً طويلاً لاكتسابه. عشت مواقف وذكريات شتى واختبرتُ الكثيرَ من المشاعر التي لا أظنك قد جربتها يوماً، هل جرّبت السقوط؟ أعني السقوطَ من مكان مرتفع، كالجسور والجبال والمباني العالية. ما زلت أذكر ذلك الشعورَ جيداً، شعور سقوطي على الأرض لأول مرة، تقلبي السريع في الهواء، وارتطامي بالأرض الرخامية، وصوت الرنين الذي أحدثهُ الارتطام.. كان ذلك الرنينُ ربما آهتي الأولى.. ثم تدحرُجي متمايلاً كالمخمور، ودوراني بعدها حول نفسي، قبل أن أهوي أخيراً على وجهي.. وأسكن دون حراك.

جربتُ مرةً واحدة دخولَ حصالةِ نقود. كان هذا عندما ألقتني طفلةٌ فرنسية اسمها «كاتي» في حصالتها المعدنية. كانت فتاةً رقيقة تحسنُ التعامل مع العملات، إذ كانت قبل أن تُلقي أي قطعة منا في حصالتها تحرصُ على غسلِها جيداً بالماء والصابون ثم تدعكها بقماشةٍ مبلولة بمادةٍ لها ملمسٌ حارق أعادت إلي بريقي الأول، بريقَ أجدادي من الذهب والفضة، البريق الذي كنت أنعمُ به حين خرجت إلى هذه الدنيا، قبل أن أتسخ ببقايا الطعام ويتلطخ وجهاي بالأقذار. لكن فرحتي بنظافتي واستعادة بريقي لم تدم طويلاً، فما لبثتُ أن أدركت أن حفلة التنظيف والتلميع تلك لم تكن سوى تأهيلٍ لإلقائي في السجن. كانت الحصالةُ مكتظةً بالمساجين، شديدة الظلام، لا يدخلها سوى قدر ضئيل من الضوء عبر بوابة السقف الضيقة. برغم اعتيادي التواجدَ في أماكن أخرى مظلمة كالجيوب وأدراج النقود في الأسواق، إلا أن عتمة تلك الحصالة كان لها أثرٌ ليس كأثر أي عتمة من تلك العتمات. علمتُ من بعض المساجين أنهم في محبسهم هذا منذ شهور طوال.. وبحسب تجارب مماثلة كان قد سبق لبعض القطع أن خاضتها، قيل أننا سنظل محبوسين هكذا حتى تمتلئ الحصالة بالمساجين إلى السقف. كان أكثر المساجين خبرةً فرنك فرنسي من فئة العشرة، سُك أواخر القرن الماضي. كان قادراً على تخمين العدد الصحيح اللازم لامتلاء الحصالة بالمساجين، وبالتالي تقدير موعد فتحها وإطلاق سراحنا. وقد كان العدد الذي خمنه لبلوغ درجة الامتلاء هو خمساً وثلاثين قطعة نقدية، ومنذ تلك الليلة، بدأت أعدُّ في سري المساجين الجدد قطعةً قطعة، أحياناً كان يفدُ إلينا في اليوم اثنان معاً، وأياماً كان يفد ثلاثة مساجين فرادى على مدار اليوم، وأحياناً كان يمضي يوم ويومان وثلاثة دون وفود أي سجين جديد. وبالفعل، كان ذلك الفرنك موفقاً في تقديره، فما إن وفدت القطعة الخامسةُ والثلاثون حتى أظلم السجنُ تماماً، وما عاد يتسعُ لأي نزيل إضافي. كان هذا بعد حبسي بتسعةٍ وعشرين يوماً.. أذكر تماماً تلك اللحظة، حين حاولت «كاتي» دسَّ سجينٍ آخر فلم تفلح.. اعترتنا حينها بهجةٌ جماعية.. كانت الأجمل من بين ما اختبرت من أحاسيس جديدة، كان لها طعمٌ مختلف، كما كان لخيبة الأمل الجماعية التي أعقبتها طعمٌ مختلف، إذ على عكس ما توقعنا، لم تفتح الفتاةُ الحصالة.

كحجر الرحى، أخذ جدار السجن الأسطواني يدور ثقيلاً بكآبته حولنا.. طاحناً بذورَ آمالنا بالخروج يوماً إثر يوم، إلى أن أعلن الفرنك ذو السوابق نظريته التي رسمت على ذلك الجدار نافذة أمل: «إنها تدّخرنا لعيد الأم». ومرةً أخرى، صدق حدسُه، ففي التاسع عشر من شهر مارس، استيقظنا على صوت مسننات فتاحة العلب تدور ببطء فوق سقف السجن.

أمضيتُ في اليونان بعد سكي ما يقاربُ العامين، جبتهُ من جنوبه إلى شماله، شرقه وغربه، مدنه وقراه، متاحفه ومعالمه وأوابده. حُمِلت في جيوب السياح إلى أكثر جزره بهاءً وسحراً.. زرتُ جزيرة «سانتوريني» و«ميكونوس» و«رودس» و«كورفر» و«كريت». لم يضاهِ افتتاني بتلك الجزر سوى الصروحِ الأثرية التي كانت تعيدني كلما دخلتها إلى الأمس البعيدِ البعيد.. حيث كان لا يعلو بريقٌ فوق هذه الأرض على بريق أجدادي.

آه.. صحيح، نسيت أن أخبرك.. كان رقمي 76 عندما كوّمتنا كاتي أمامها على السرير وجلست تعدّنا لشراء الهدية. عندما سُحبتُ من دُرج دكان الهدايا، صاح رفاق السجن: مع السلامة يا 76.. سعدنا بلقائك يا 76.

تلك الحصالة سلبتنا أسماءنا..

بلوفديف – بلغاريا Plovdiv-Pulgaria |

في شتاء عام 2006 انتقلتُ من اليونان إلى بلغاريا على متن قطار، في محفظة سيدةٍ بلغارية عجوز، وصلتُ إليها من متجر للتذكارات والهدايا في مدينة «تيسالونيكي» الساحلية المطلةِ على بحر إيجة. كان قد مضى على إقامتي في تلك المدينة ما يقاربُ الشهرين، قضيتُ منهما عشرةَ أيامٍ مرمياً في منزل أحد الصيادين، وكم تمنيتُ أن يصحبني معه في إحدى رحلات صيده لأرى كيفَ تُصاد الأسماك، لكنه لم يفعل.. وربما كان هذا من حسن حظي، فقد سبق أن غرقت أمامي نقودٌ من على متن المراكب السياحية في رحلاتها بين الجزر. غرقُ النقود يعني أن تمضي بقية عمرها الأزلي مرميةً في وحشة القاع السحيق، تحيطها مياهٌ مالحة وعتمةٌ حالكة، وتكتسي وجوهها وحوافها مع الزمان الطحالبَ والصدأ. أرأيت كم هو مخيفٌ هذا الغرق؟

كان برفقة العجوز زوجها الذي لم يفارق المنديلُ أنفه المزكوم، لم يتحدثا كثيراً خلال الرحلة، ولو استثنيتُ ما يدورُ عادةً من حديث عابرٍ بين أي راكبين غريبين، لأمكنني القول بأنهما قد أمضيا رحلتهما منذ انطلاق القطار حتى وصوله صامتين. أركبني صمتُ العجوزين في تلك الرحلة الشتوية الهادئة زورقَ تأملاتٍ عذبة.. صوت الموج القادم من الساحل البعيد.. نداءات النوارس للمراكب المغادرة في بحر إيجة شاحب الأمواج.. نقر حبات المطر على سقف القطار.. الجبالُ والسهولُ والبيوتُ والأشجارُ والشوارعُ والوجوهُ والمعادنُ المكتسية كلها بصبغة حزينة.. لها لون الشتاء.

حين خرجنا من اليونان، ضاقت عليّ محفظةُ العجوز..

كان عصراً ماطراً عندما نزلا في محطة «بلوفديف».. كان لدي فضولُ الدخول إلى منزلهما لأرى ما إذا كانا سيعلقان ذلك الصمتَ الكئيبَ فور دخولهما الباب، كما تُعلق المظلة على المشجب.

بعد أن سرنا قليلاً في المحطة، وعلى حين غِرة، وجدتُني أتخبط مترنحاً بعنف في جيب محفظة العجوز. كذّبتُ نفسي، لم أصدّق.. مستحيل! هذه العجوز بالكاد تقوى على المسير ببطء سلحفاة، فما الحكاية؟ أتكونُ قد ركبَت حصاناً؟ لا، لا أظن، من أين لها بحصان في وسط المدينة؟! وأخذتُ أضحكُ حين تخيلتُ العجوزَ تعدو كالحصان، إلى أن ألجمَت ضحكتي صرخةُ العجوز: «أمسكوا اللص.. أمسكوا اللص».

هل جربتَ أن تكون من مسروقاتِ نشالٍ وضيع؟ كان ذلك النشالُ شاباً صغيراً يُدعى «ماريو»، لم أصفهُ بالوضيع لأنهُ نشال، ولا أنهُ ارتضى لنفسه أن يسلبَ تلك العجوزَ المسكينةَ مالها، ولا حتى لأنهُ قد حرمني بفعلته النكراء تلك من إرواء فضولي حول صمت العجوزين وشكل بيتهما، بل أنعتهُ بالوضيع لأنه لا يقومُ بنشلنا كي يشتري لنفسه الطعامَ والكساء أو حتى السجائر والحكول، إذ لم يكن بحاجةٍ للمال.. بل كان ينشلُ المحافظَ وحقائب الكتف، كي يمارسَ هوايتهُ الغريبة: جمع البطاقات الشخصية.

لسوءِ حظ ماريو، لم يكن في محفظة العجوز غيري، فلا بطاقات ولا حتى نقود.. إذ كانت تلك المحفظة قد اشتراها زوج العجوز في متجر التذكارات وقدمها هديةً لزوجته، وكنتُ أنا باقي الحساب الذي أرجعه صاحبُ المتجر، فوضعَتني العجوز في المحفظةِ الجديدة، كتذكارٍ آخر من رحلتهما إلى اليونان.

لم يدُم حنقي على السارق طويلاً، إذ سرعانَ ما سعدتُ بفعلته، بعد أن عرفتُ ما الذي تعنونهُ بالتذكار. فلولا أن سُرقتُ منها، لكنتُ حتى الآن مسجوناً بعلبةٍ صغيرةٍ داخل صندوق قديم من

صناديق العجوز، ولتوارثتني ربما بعدها الأجيالُ والأجيالُ من أحفادها، كتذكارٍ لرحلة جديهما السعيدةِ في العصور الغابرة.

هل ذكرتُ العصور الغابرة؟.. كان أجدادي الأوائل من الفضة الخالصة، برسم للآلهة أثينا، على أحد الوجهين، وعلى الوجه الآخر نفسُ هذا الرسم المحفور على أحدِ وجهيّ: بومة أثينا مع غصن زيتون، وهلالٍ عتيق.

كان الإغريقُ يدعوننا دراخما، وهو الاسم الذي توارثته سلالتي جيلاً بعد جيل، حتى زمن قريب، إلى أن جاء جيلي.. جيل اليورو.

إن حنيني إلى ذلك الزمن الإغريقي البعيد، واشتهائي لأن أكون خُلقتُ فيه، لا يعودُ لرغبتي بأن يكون معدني الفضة، أو أن أكون أول عملةٍ سُكت في بلادي.. لكنهُ عشقي لتلك الحضارة، بآلهتها الخرافية، وأساطيرها، وحروبها وسلمها ونهضتها.. وبساطتها، وسحر كل شيءٍ فيها.. أجل، كان للأشياء في تلك العصور سحرٌ لا يُضاهى.. ربما هو سحرُ البدايات.

التقيتُ مرةً في درج مكتبةٍ عريقةٍ في أثينا بدراخما قديم وسيم، كان من الجيل الذي سُك عام 1976، يحملُ أحدُ وجهيه رسماً للبارثينون، المعبد الإغريقي الرابض على هضبة الأكروبوليس، ويحملُ وجهُه الآخر رسماً لبريكليس، أعظم ساسة اليونان القديمة، وباني ذلك المعبد. كان ذلك الدراخما، بحكم مكوثه في تلك المكتبةِ لسنواتٍ طوال، ذا علم غزير بالتاريخ اليوناني، وما مرت به البلادُ من حضاراتٍ على مر العصور.

من الحكايات الجميلة التي رواها لي ذلك الصديق، حكاية الدراخما الذي كان يعلقهُ على صدره أحدُ فرسان إسبرطة الثلاثمئة، الذين تصدوا ببسالةٍ لجيش الفرس الجرار في معركة ثرموبيلاي الشهيرة.. ربما تكون قد سمعت بتلك المعركة، أما هذه الحكاية فلا أظنك قد سمعتها من قبل، فهي من الحكايات المتداولة بيننا وحسب، نحن معشر النقود المعدنية، لأنها حكايةٌ من بطولتنا نحن..

تقول الحكاية إن محارباً اسمه ستيليوس كان من بين المحاربين الثلاثمئة الذين خرجوا بقيادة ليونيداس ملك إسبرطة عام 480 ق.م لصد جيش الفرس، وقد كان لذلك المحارب الشاب حبيبةٌ في أثينا اسمُها ميريانا، لم يكن لديه الوقت الكافي للذهاب إلى أثينا لوداعها قبل انطلاق الجيش، فراح في كل ليلةٍ وهو في طريقه إلى ساحة المعركة يهمسُ باكياً قبل أن ينامَ برسائل بوحٍ ووداع إلى حبيبته، في أذن الدراخما المُعلّق كقلادةٍ حول عنقه، كانت تلك القلادة هديةً منها لم تُفارق صدرهُ يوماً منذ أن علقتها حول عنقه في سالف الأيام. كان يفعلُ هذا ليقينه كرفاقه، بأن لا أحد منهم سينجو في تلك المعركةِ غير المتكافئة، على الرغم من البسالة الأسطورية التي واجهوا بها ذلك الجيش المخيف. بعد أن لقي ستيليوس العاشق مصرعَهُ مع مليكهِ وجميع رفاقه في المعركة، استولى جندُ الفرسِ على أسلحتِهم وحُليّهم، وكانت تلك القلادةُ من بين ما استولوا عليه. وما إن علقها حول عنقهِ أحدُ قادة الجيش الفارسي وكان يدعى «داريوش»، حتى صار في كل ليلةٍ حين يخلدُ إلى فراشه لينام، يسمعُ نعيقَ بومةٍ كالأنين، ويشعرُ بماءٍ باردٍ كالثلج يسيلُ على صدره، بغيرِ أثرٍ للبلل.

لقد كانت بومةُ القلادة تردّدُ كلَّ ليلةٍ بنعيقِها المحموم همساتِ ستيليوس الحزينة في رسائل وداعِهِ لميريانا، وكانت الإلهة أثينا المنقوشة على الوجه الآخر من العملة، تذرفُ الدموعَ بحرقةٍ كلما سمعت ذاك النعيق. ظلت تلك المعجزة تتكرر كل ليلةٍ على مدى أسبوع، لم يذق خلاله داريوش طعمَ النوم.. بين نعيقٍ لا ينقطع، وجداول ثلجية تجري على صدره حتى طلوع الشمس. إلى أن شاع بين صفوف الجيش بأن القائدَ داريوش قد خارت قواهُ وفقد عقله، وبات يهذي بكلامٍ غير مفهوم،

فوصلت هذه الأنباءُ إلى مليكهم «أحشويروش» الذي كان حينها على رأس جيشه، فأرسل في طلبه للنظر في أمره، وحين مثل القائدُ بين يدي مليكه كان شاحبَ الوجه كالأشباح، ضعيفَ الجسد، بالكاد يقوى على الوقوف، مستمراً دون توقف في الهذيان بذلك الكلام غير المفهوم، فصاح كاهنٌ كان من بين الحضور: «مولاي إنه لا يهذي.. بل ينطق بكلماتٍ يونانية لكن بشكلٍ معكوس». وراح الكاهنُ يدوّن ما يسمع ثم يعكسه إلى أن صار بين يديه نصوصُ رسائل الوداع، فقرأها على مليكه. بعد اقتحامهم أثينا، وقبل أن يحرقوها، أمر الملكُ جندهُ بأن يحضروا للكاهن كلَّ فتاةٍ فيها تدعى ميريانا. كان ذلك الاسمُ حينها كثيرَ الشيوعِ في أثينا، فمثلت بين يدي الكاهن ما يقارب السبعين شابة. حمل الكاهن قلادة ستيليوس، وراح يطوفُ بها بينهن يلبسُها لواحدةٍ تلو الأخرى، إلى أن علقها حول عنق العاشقة.. فتوهجت عينا البومة بضوءٍ شديد أفقد الكاهنَ بصرَه، وأطلقت نعيقاً أرعدَ القلوب، قبل أن تنفضَ جناحيها وتخرج من قطعة النقود آخذةً حجم طائر الفينيق، وراحت تحومُ بلونها الفضي اللامع فوق الرؤوسِ بغضب، قبل أن تحملَ ميريانا بمخالبها الكبيرة وتطيرَ بها بعيداً في السماء، حتى اختفت كنجمٍ آفل.

يقولُ صديقي الذي روى لي هذه الحكاية، إنه تم العثور منذ ما يقارب الستين عاماً في إحدى جزر اليونان، على قطعةِ دراخما تعودُ إلى العصر الإغريقي القديم.. مثقوبة من أعلاها، على أحد وجهيها رسمُ الإلهةِ أثينا كأي دراخما من العصر القديم، وعلى الوجه الآخر غصنُ زيتون وهلال.. ومساحةٌ ملساء فارغةٌ من أي رسم.. حيث يفترض أن يكون رسمُ البومة.

هل نمت؟.. حسناً، تصبح على خير.. أكملُ لك في الغد.

عندما اكتشف النشالُ ماريو أنّ ركضَه قاطعاً حياً كاملاً من أحياء بلوفديف، هرباً ممن تبرَّع بلحاقه من المحطة لاسترجاع المحفظة للعجوز المسكينة، وأن كلَّ ما تعرّض إليه من خطر القفز بين السيارات المسرعة كان سُدىً، استشاطَ غضباً وضربني بعنفٍ على حائطِ غرفته الصغيرة، فارتددتُ بقوةٍ وارتطمتُ بالحائط المقابل قبل أن أترنح على الأرضِ متدحرجاً إلى أن استقريتُ تحت سريره. لم أكن بعدُ قد عرفتُ سرَّ غضبه الحقيقي، إذ ظننتهُ حينها قد غضب كلَّ هذا الغضب لأنهُ لم يجد في المحفظةِ غيري من النقود، فأشفقتُ عليه لظني بأنهُ سيضطر للمبيت بلا عشاءٍ تلك الليلة، لكني تفاجأتُ عند المساء برائحة طعامٍ شهي تنبعثُ من الصالة، استطعتُ أن أميز منها رائحة لحمٍ مشوي وحساء ذرة، ثم سمعتُ طقطقة الأواني والصحون، ودردشاتِ أهل البيت حول طاولة الطعام.

بعد منتصف الليل عاد إلى حجرته، أشعل الضوء، أقفل الباب بالمفتاح، وأخرج صندوقاً مخبّأً في مكانٍ سرّي، وراح يقلّبُ محتوياته بهدوء، قبل أن يعيده إلى مكانه ويطفئ الضوء ويلقي بنفسه على السرير.

لعينيه استدارةٌ تشبهُ عينيّ بومةِ أثينا المحفورةِ على وجهي. كان يتحسسُ الأرضَ بباطن كفهِ باحثاً عني في العتمة الحالكة تحت السرير، إلى أن عثر عليَّ أحدُ أصابعه. فأزاح الستارة عن النافذة، مفسحاً لضوءِ الصباح الخافت التسللَ من بين الغيوم الماطرة، وجلس إلى الطاولة الصغيرة التي كان يقلّب فوقها في الليلة السابقة ما بصندوقه السري، وراح يقلّبني في يده، قبل أن يصرخ غاضباً: «يوناني! لو لم تكن ضيفاً لوضعتُك على السكة الحديدية لتهرسك عجلاتُ القطار الذي أتيتَ به»، ثم خبطني بكفّهِ على الطاولة، وبدّل ثيابهُ سريعاً وخرج.

لم يمضِ وقتٌ طويل على مكوثي الممل عنده، حتى اطلعتُ على سر ذلك الصندوق وسرِّ هوايته تلك، إذ فتحَ الصندوقَ بجانبي على الطاولة ليضيف إلى مجموعته الأثيرة بطاقةً أخرى، كان قد نشلها لتوه في حقيبةٍ نسائية ملأى بالنقود الورقية وبعض القطع المعدنية، فأحصيتُ في صندوق كنزه ما يقاربُ العشرين بطاقة، مرتبةً بالتسلسل الأبجدي وفقاً لأسماءِ أصحابها.

أظنني أحببتُ ذلك النشال رغم وضاعة هوايته، ربما لأن عينيه كانتا كعينيّ بومتي، أو لأنهُ تراجع عن إيذائي حين اكتشف أني ضيفٌ على بلاده، أو ربما أحببته حقاً لأنهُ كان أولَ من يحدّثني من البشر، أولَ من لا يراني منكم مجردَ قطعةٍ من المعدن، أو مجردَ شيءٍ لم يُخلَق إلا ليُشترى بهِ غيرُهُ من الأشياء.

في اليوم التالي لنشله للحقيبة النسائية الممتلئة بالنقود، ضمني ماريو إلى ما كان فيها ومضى بنا ليلاً إلى حانةٍ في الحي المجاور، حيث التقى رفاقه هناك وطلب لهم المشاريب على حسابه. كنت اليورو الوحيد بين تلك الليفات البلغارية، فأعادني الساقي إليه معتذراً عن قبولي، فتلقفني من يده مخمورٌ كان جالساً أمام المنضدة ودسني في جيب معطفه ضاحكاً: «أما أنا فلا مشكلة لدي في قبول اليورو». وبالفعل، لم تكن لديه مشكلة في ذلك، فالمشكلة وقعت لي أنا مذ صرتُ في جيبه، إذ بقيت في ذلك الجيب الداخلي ما يقارب الشهرين، أمضيتهما بترنح شبه يومي مع ذلك السكّير الذي لم يفكر يوماً بغسل معطفه الذي كانت تفوح منه رائحة الخمور أكثر من خمّارة.. إلى أن وجدتُ نفسي بعد انتهاء الشتاءِ غارقاً في بركةِ نافورةٍ كبيرة، في الساحةِ المركزية للمدينة، أمام مبنى البلدية.

لحسن حظي، لم يكن القاعُ عميقاً، كما أن المياه كانت شديدة النقاء، فكان من السهل العثورُ عليّ. وبالفعل، فقد رآني كثيرون ممن وقفوا أو جلسوا حول النافورة، رأيتهم كيف كانوا يحدّقون بي كلما انتبهوا إلى بريقي، لكن أحداً منهم لم يمدُد يدَه لانتشالي.. خجَلاً من الناسِ ربما، أو ربما ترفُّعاً عن تبليلِ أيديهم، فمكثتُ في تلك البركةِ نهاراً كاملاً كان من أجملِ النهارات التي أمضيتها في بلوفديف. كان الطقسُ ربيعياً دافئاً، وكان كلُّ ما حولَ البركةِ يرقصُ بسعادة، الأشجارُ والطيورُ والنسائمُ العليلة، حتى الناس، كانت عيونهم مبتهجةً بذلك الطقس البديع. أما أنا، فسعادتي الكبرى في ذلك اليوم لم تتحقق إلا عندما سبحت إليّ فجأةً يدُها كسمكة زينةٍ رقيقةٍ خلابة وانتشلتني من البركة.

كانت أصابعُها طويلةً نحيلة ناعمة، لها رائحةُ زيتِ بذرةِ الكتان. مسحَت الماءَ عن وجهيَّ بمنديلٍ أخرجتهُ من حقيبتِها الصغيرة كحقائبِ الدُّمى، ثم لفتني بذلك المنديل، ووضعتني داخل الحقيبةِ بهدوءٍ ولطف، كعاشقةٍ تدسُّ في حقيبتها وردة.

كانت رسامةً اسمُها «لالا»، وهو اسمٌ سُلافي ذو أصلٍ فارسي يعني زهرة التوليب، وقد كانت تلك الفتاةُ حقاً زهرةَ توليب، بجمالها ورقّتها وعطرها. لكنني لم أعرف ما يعنيه اسمُها إلا لاحقاً من يورو هولندي التقيته في دكان زهور في أمستردام، كان ذلك اليورو المنقوشُ على وجهه رسمٌ للملكة الهولندية بياتريكس خبيراً بالزهور عليماً بأسمائها بشتى اللغات لكثرةِ ما تنقّلَ بين دكاكين الزهور في سوق بلومن، السوق العائم فوق مياه قناة سنجل. تعلمتُ من ذلك الصديق الهولندي الكثيرَ عن الزهور، كما سمعتُ منهُ الكثيرَ من الحكاياتِ عنها، كحكاية المئة ألف زهرةٍ من التوليب التي أرسلتها الملكة الهولندية جوليا إلى الشعب الكندي، عرفاناً منها بجميل حُسن استقبالهم لها في بلادهم، وحكاية زهرةِ البنفسج مع ملك الثلج، وزهرة الزعفران مع الحورية والراعي كروكوس، والنرجس مع الجميل نرسيس، وزهرة الزنبق مع هيرا زوجة زيوس، والكثير غيرها من الحكايات. لكن أكثرها تأثيراً في نفسي، كانت حكاية زهرة التوليب الفارسية التي نبتت من دماء العاشق فرهاد، الذي

ألقى بنفسه من قمة جبلٍ شاهقٍ حزناً على نبأ موت حبيبته شيرين. ربما كان سببُ تأثري بتلك الحكاية أكثر من سواها هو أني كنتُ قد اختبرتُ شعورَ السقوطِ من ارتفاعٍ شاهق، وشعرتُ بما أحسَّ به فرهادُ وهو في طريقه إلى القاع السحيق، فأنت بكل تأكيد حين تسمعُ حكايةً تنتهي بسقوطِ بطلها سيكونُ مقدارُ حزنك محدوداً بما يمكنك تخيله من ألم ذاك السقوط الذي لم تجربه، أما أنا فقد كنتُ أعرفُ جيداً تلك المشاعرَ التي اختلجت قلبَ العاشق فرهاد وهو يهوي من رأس ذاك الجبل، قبل أن يتضرج بدمائه، وتنبت منها زهورُ التوليب.. أو زهورُ الـ لالا.



نافورة مبنى البلدية بلوفديف **Plovdiv – City Hall Fountain**

كانت السُّكنى في منزل «لالا» المطلِّ على جبال رودوبي، أشبهَ بالسُّكنى في معرضٍ تشكيلي، فلوحاتها الزيتية كانت تُزيّن جميعَ جدرانه حتى جدران الحمامِ والمطبخ. كان منزلاً صغيراً كحقيبتها، لكن الرسومَ والألوانَ على جدرانه كانت تفتح لمن يراها آفاقاً تتجاوزُ حدودَ ذلك المنزل، بل وحدودَ الكون. كان المنزلُ أقرب إلى الكوخ منهُ إلى منزل، فحجمُهُ الصغيرُ وسقفهُ القرميديّ والأشجارُ من حوله والأراضي العشبية التي كانت تحيطُ به لوقوعه على أطراف المدينة، كل هذا أضفى عليه شكلَ الأكواخ الريفية. كان مقسوماً في الطابق الأرضي إلى مرسمٍ صغير وغرفةِ جلوس تضمُّ مطبخاً وحماماً صغيرين، وفي الطابق العلوي كانت غرفةُ النوم ذاتُ السقفِ الهرمي، والنافذة الوحيدة، المطلةِ على الرودوبي.

كانت تتحركُ في أرجاءِ منزلها بهدوءٍ وانسيابٍ كرقصة المينيويت، وبنفس ذلك الهدوء كانت ترسمُ وتأكل وتستحم وتقرأ وتستقبلُ أصدقاءها كثيري الصخب، وبنفس ذلك الهدوء.. كانت تعاملني.

لم أستطع فهمَ سر اهتمامها وتعلقها بي، فمنذ أن انتشلتني من تلك البركة حرصَت على أن تأخذني معها أينما حلّت. فإذا خرجَت إلى السوق أو لزيارةٍ أو سهرة حملتني في حقيبتها الصغيرة، وإذا دخلت مرسمها أدخلتني معها وأجلستني بين أنابيب الألوان، وكانت أحياناً تستعينُ بي لكشط الألوان الجافة عن عنق الفرشاة، حتى غدوتُ بمرور الوقت مُلوّناً، فسعدتُ كثيراً بشكلي الجديد.

لم تكن «لالا» سعيدةً طولَ الوقت، فقد كانت تمرُّ بلحظاتِ حزنٍ، لم أعرف سببَه. إذ كان يعصفُ هكذا بلا مقدمات، وكأنها ذكرى حزينة تطرقُ بابَ قلبها بين كل حين. مع امتداد العِشرةِ بيننا، صرتُ قادراً على تمييزِ حجم حزنِها من سلوكها؛ فإن كان حزناً ضئيلاً كان جلُّ ما يفعلهُ بها هو مسحُ ابتسامتها العذبة، أما إذا كانت وطأتُهُ ثقيلةً ضمّت يديها تحت أنفها وأغمضت عينيها مستنشقةً بعمق رائحةَ زيت بذرة الكتان التي لم تكن تفارقُ أصابعَها لكثرةِ ما اصطبغت بالألوان الزيتية. كانت رائحةُ الزيتِ تلك تبعثُ الهدوءَ والسكينةَ في نفسها.. ربما بسبب الألفةِ التي نشأت مع

السنين بين صدرها وذلك العطر.. أو لأن عطرَ الأشياءِ هو روحُها الحقيقة التي تبعثُ في نفوس من يحبونها الطمأنينة والارتياح. لكن ذلك العطرَ أيضاً لم يكن بمقدورهِ فعلُ شيءٍ لها إذا ما اشتدّ بها الحزنُ حدّ البكاء، فكانت إذا بكت تهرعُ إلى ستارةٍ في المرسم مُسدلةٍ على الجدار المقابل لجبال الرودوبي، فتزيحها عن لوحةٍ مرسومة على شكل نافذةٍ مطلةٍ على بحر إيجة، الذي تحجبهُ في الحقيقة عنها تلك الجبال. وكأنها بتلك النافذةِ التي رسمَتها فتحت في جبال الرودوبي نفقاً يتيحُ لها رؤيةَ البحر وبثَّ همِّها وحزنِها إليه. ذلك البحر الذي ما أن رأيتُ اللوحةَ / النافذةَ لأولِ مرةٍ حتى عرفتُه، وعدتُ بذاكرتي إلى الأيامِ التي أمضيتُها في تيسالونيكي، وعاد بي الحنينُ إلى بلادي.

سافرَت لالا لبضعةِ أيامٍ إلى العاصمة صوفيا، ولم تصطحبني معها. لا أعلمُ إن كان سهواً أم أنها تعمدت تركي. على أيةِ حال، ولحسن حظي فإنها لم تتركني بغير أنيس، إذ وضعتني في علبةٍ خشبية تضمُّ ما يقاربُ الخمس عشرة قطعة نقدية، كلها نقودٌ بلغارية من الـ «ليف» وفئات الـ «ستوتنكا» المختلفة، باستثنائي أنا ويورو إيطالي. كانت صحبةً طيبة مسلية فيها الكثير من المتعة والحكايات الشائقة، وكانت أحاديثنا غالباً بحكم أجواء ذلك المنزل تدورُ حول الرسم والرسامين والألوان، إلى أن خرج عن صمتهِ ذات يوم اليورو الإيطاليُّ كثيرُ التأمل، وقد كان مُغرماً بفن النحت، فما إن بدأتُ بوصف المنحوتات الإغريقية في بلادي حتى وجدناه يقولُ مقاطعاً: «دائماً ما كانت المنحوتات اليونانية ملهمةً لكبار نحاتي إيطاليا ومعلمةً لهم، فمنها توصّل أنجلو إلى فهم المعايير الحقيقية للفن الأصيل، حين درسَ مجموعة التحف الإغريقية الفريدة التي جمعها لورينزو دي ميديشي، حاكم فلورنسا»، وراح يحدثنا عن ذلك الفن العريق وأعظم عباقرته، كالإيطاليين دوناتيلو ومايكل أنجلو، والفرنسي أوجست رودان، وما يميز أسلوب كل واحدٍ منهم، وكان لكثرة تأملاته الدقيقة بكل ما رآه من منحوتات قادراً على وصف كل منحوتةٍ يحدّثنا عنها بدقةٍ متناهية، كما لو كان يعيدُ نحتها في الهواء، فنراها ماثلةً أمام نواظرنا.. كالحقيقةِ المدهشة.

أتدري؟.. تمنيتُ الآن وأنا أستذكرُ قدرته المدهشة على الوصف، لو أنه التقى بكوستا ورأى منحوتاته الرملية، فيصف جمالها لكل من يلتقيهم من عملات.

كان ذلك اليورو الإيطالي من فئة الاثنين يورو، أي كان يكبرني حجماً، وكان منقوشاً على وجهه الوطني رسمٌ للشاعر الإيطالي دانتي.

إنّ كلامَ ذلك الصديق الإيطالي عن نحّاتي بلادهِ ومنحوتاتهم، وعن سحر العمارةِ في روما وفلورنسا والبندقية وميلانو وغيرها من المدن الإيطالية، فجّرَ في داخلي رغبةً متأججة بزيارةِ تلك البلاد، وتمنيتُ لحظتها لو كان بوسعي مثلكم معشرَ البشر.. امتلاكُ خطواتي.

بعد أيامٍ قليلة من عودتها من صوفيا، أخرجتني «لالا» من العلبة. كانت تشع من عينيها سعادةٌ غامرةٌ، جلسَت تنظفني بعنايةٍ ومحبة مزيلةً عني بقعَ الألوان العالقة، فعدتُ من جديد إلى هيئتي الحقيقية غير الملونة، لكن رائحة يديها، لم تفارقني حتى الساعة، ها أنا الآن أشمّ رائحة زيت بذرة الكتان!

بعد أن انتهت من تنظيفي، وضعتني كما اعتادت على منضدة الضوء بجانب السرير ونامت، وفي الصباح الباكر وضعتني في جيبِ بنطالها الجينز، وأخرجَت دراجةً هوائية من مخزنٍ صغير خلف المنزل لم أكن قد انتبهتُ من قبلُ إلى وجوده، مثلما لم أكن قد علمتُ قبل ذلك بأن لديها دراجةً هوائية.

كانت المرةَ الأولى في حياتي التي أركبُ فيها دراجةً هوائية، وقد كان شعوراً لا يمكن وصفُه.. ربما يشبهُ شعورَ نوارس إيجة حين كانت تفردُ أجنحتها البيضاءَ لنسمات الصباح المعطرةِ بملح

البحر، غير أن نسمات ذلك الصباح كانت عابقةً بنضرة الغابات المنعشة والحقول اليانعة الممتدة على جانبيّ الطريق المؤدية إلى بلدةِ «اسينوفجراد».

عند مدخل تلك البلدة، توقفت لالا لتستريح قليلاً، قبل أن تستأنف صعودها إلى قلعةٍ صغيرة تعودُ إلى القرون الوسطى، تربضُ على سفحِ تلةٍ صخريةٍ عالية تحت الرودوبي تُدعى «قلعة آسين».

هناك، في تلك القلعة، كان آخرُ عهدي بتلك الفنانةِ الرقيقةِ، التي همست بخشوعٍ في أذني صلاةً وأمنية.. وألقتني من أعلى شُرفةٍ في القلعة.

ربما كان عليّ أن أستقرّ بعد تلك الرميةِ القويّة بين الأحراجِ المحيطةِ بالقلعة لتتحقق أمنيةُ صديقتي بحسب طقوس التمني تلك، التي لا أعرفُ إن كانت مِن ابتكارها أم أنه تقليدٌ قديمٌ مُتبعٍ عند أهل بلوفديف. بكل الأحوال، لا أظنُّ أمنيتَها تلك قد تحققت، فقد ارتطمتُ في طريقي إلى الأحراج بصخرةٍ حرفَت مساري، فهويتُ بين قطوفِ عنبٍ مُحمّلةٍ بأقفاص خشبية في مقطورةٍ شاحنةٍ كبيرة.. حملتني إلى مدينة «ڤارنا».



Fortress – Asen's قلعة آسين

ڤارنا - بلغاريا Varna-Pulgaria |

كلُّ شيءٍ في «ڤارنا» يشبهُ البحر، فالنساءُ على الشواطئ بظهورهن البرونزية وما تموّجَ فوقها من شَعرهن، لا تراهنّ إلا بحوراً نابضة. والحافلاتُ إذ تمشي على مهلٍ فكأنها بواخر وراءها الطرقاتُ آثارُ المسير فوق سطح الماء، وفي التصاميم الحديثة للمباني والمعالم ترى القواقع والصَّدف. أما مبانيها القديمة، فإن أمعنتَ في تأملها وجدت في بنيانها منارةً أو اثنتين، ورجالها بحّارةٌ حتى وإن ارتدوا زيّ الموظف أو المحامي أو الطبيب.. أو بائع الفواكه.

كان «أندون»، بائعُ الفاكهة السمين الذي وصلتُ إلى دكانه، يشبهُ الفواكه بلونه الوردي المرقط مثل تفاح العسل، وتدحرجِه في مشيته كالبرتقالة، وحلاوة قلبهِ مثل تين إسبانيا، وابتهاجه الدائم كفاكهة المانجو.كان دكانه من أشهر دكاكين بيع الفاكهةِ في «ڤارنا»، فقد كان دكاناً كبيراً يحتوي كلَّ ما قد تتخيله من أصناف الفاكهة كثيرة الألوان والبهجة، والتي كان يفرزها وينظفها ويرتبها بنفسه عند عرضها، تاركاً مهمة البيع لعشرةٍ من أنشط العمال، يحومون بين سلال الفواكه مثل نحل العسل.

عثرَ عليَّ «أندون» بينما كان يُخرجُ القطوفَ من القفص الخشبيّ لفرزها، أخذ يتلفّت حولهُ كمن عثرَ على قطعةٍ ذهبيةٍ وخشي أن يعلم بأمرها أحد، ثم دسني في جيبِ قميصهِ وأكملَ عملَه، وعندما عاد بي إلى منزله، خلع قميصَه ورماهُ في سلةِ الغسيل ناسياً أمري.

هل جربت الدورانَ بسرعةٍ لا تُحتمَل داخلَ حوضٍ مُحكم الإغلاق، غارقاً في مياهٍ مشبعةٍ بالمواد الكيماوية والأقذار؟

سقطتُ من جيب القميص بينما كانت تقومُ زوجةُ أندون بنشر الغسيل، فانتشلتني عن الأرض، ونادت طفلها الذي كان عمره لا يزيد عن ثمانية أعوام وناولته إياي، فنظرَ إلي باشمئزاز وقال معاتباً أمه: «يورو واحد؟! لا أريده!» وهمّ أن يرميني لولا أن نهرتهُ أمهُ قائلةً: «إياك أن تفعل، فهباتُ الرب لا تُرمى».

كان اسمُ ذلك الطفلِ الشقيّ «كوستا»، وكانت لهُ أختٌ بدينة وردية اللون، تشبهُ والدها كثيراً، عمرها عشرة أعوام اسمُها «روسيكا». لم يجرؤ «كوستا» على تركي منذ أن وبخته أمه، فصارَ يحملني معه أينما حلّ باذلاً قصارى جهده أن تراني أمهُ دوماً معه، فكان أحياناً يختلقُ أسئلةً كحجةٍ لهذا، كأن يحملني إليها ويسألها عن اسم هذا الطير المحفور على وجهي، أو لماذا لم يرسموا عليّ حصاناً يمتطيه فارسٌ كذلك الذي على الستوتنكا. كانت أمهُ تجيبهُ مبتسمةً لمكره، وتستفيضُ في إجابتها متظاهرةً بأن حيلتَهُ قد انطلت عليها، وبعد أن تُنهي الإجابةَ تسألُه: أليس هذا اليورو الذي وجدناهُ في قميص والدك؟.. فيجيبُ مسروراً: أجل!

مع مرور الوقت، تحولتُ عند كوستا من أداةٍ ناجحة لإثبات إطاعتهِ لأمه، وتقديرهِ للنعَمَ التي يهبُنا الإله، إلى صديقٍ حقيقيّ، وما عادَ يأبهُ لأن تراني أمهُ معه أو لا تراني، فصرتُ دميتَهُ المفضلةَ الوحيدة، لا أفارِقُ كفّهُ أو جيبَه، حتى خلال النوم كان يُغفيني بحبٍّ تحت وسادته، فإذا بذاك الطفل خلال أيامٍ قليلة يغدو لي أخاً.. أتصدق؟ شعرتُ حقاً بأنهُ قد غدا أخي. كان إحساساً جديداً لم أكن جرّبتُهُ من قبل، شأنه في جِدّتِه شأن الأحاسيس الجديدة، لكنهُ لم يكن كأيّها من حيث وقعهِ في القلب.. قلب الوحيد.

وكأي شقيقين متحابين، أمضينا معاً أجملَ وأمتع الأوقات. كان كوستا بارعاً، بل عبقرياً في تشكيل رمال الشاطئ، فبنينا قصوراً وقلاعاً ومناراتٍ رائعة. التقط لنا «أندون» بهاتفه الكثير من

الصور، كان أجملها حين أوقفني كوستا فوق إحدى قباب كاتدرائية مرقد العذراء التي أمضينا نهاراً كاملاً في بنائها، وأبهرَت جميعَ من رآها، إذ لم يصدقوا أن طفلاً بمثل سنّهِ قادرٌ على بناءِ شيءٍ من الرمل بكل ذلك الإتقان. كان والدهُ يقولُ دائماً بفخر: «سيكونُ لهذا الفتى حين يكبر شأنٌ عظيمٌ في النحت» فأبتسمُ متذكراً نحاتي إيطاليا، شاعراً بالفخر بشقيقي النحات. أما أمتع اللحظات التي كنت أمضيها بصحبته داخل المنزل، فهي عندما كنا نشاهد برامج الأطفال أوقات الظهيرة. كان كوستا مولعاً جداً بشخصيةِ «سبونج بوب».. ذلك الكائن الإسفنجي مربع الشكل الذي يعيشُ في أعماقِ البحر داخل ثمرة أناناس.. ولشدةِ حبهِ له، همسَ لي مرةً بأنهُ كان يتمنى لو أن شكلي كان مربعاً مثل سبونج بوب، على الرغم مما كان يحققه له شكلي الدائري من مرح، إذ كان يجدُ متعةً كبيرة حين يوقفني على حرفي تحت سبابته، وينقفني بالسبابةِ الأخرى، فأدورُ حول نفسي بسرعةٍ كـ «البلبل» على بلاطِ الدار.



سبونـج بوب مربـع السروال **Spongebob Squarepants**

كان كلُّ ما يسعدهُ يسعدُني، وإذا أتاني شاكياً يبكي بكيت.. وكان أكثرُ بكائهِ من نزقِ أختِه روسيكا. أما أكثرُ اللحظات حميميةً بيننا، فكانت عندما نخلدُ إلى الفِراش، فيحدِّثُني قبلَ نومهِ عن أمانيه وأحلامه، إذ كان يتمنى أن يركبَ منطاداً بشكل أناناسة، يطيرُ بهِ في رحلةٍ حول العالم.. وأن أكونَ معهُ في تلك الرحلة.

مرّت شهورٌ ثلاثة وأنا وأخي بأحسن الأحوال، لم نفترق أبداً خلالها. كانت سعادتُنا تعادلُ ربما سعادةَ كلِّ من في الكون، إلى أن تشاجرَ مرةً مع أختهِ فحاولَت انتزاعي من يدِه لتعاقبَه، ففرّ منها باكياً.. وتوعّدَتهُ بأنها ستسرقني، وترميني في البحرِ حين ينام.

صدّقَ كوستا تهديدَ أخته وأخذهُ على محمل الجد، فقرر ألا ينامَ ليلتها ليحرسَني، وجلس مُسنداً ظهرَهُ إلى رأس السرير مترقباً كجندي خائف يقومُ بنوبةِ حراسةٍ ليلية على تخوم ساحةِ القتال، مردداً كلَّ قليل أغنية سبونج بوب، في محاولةٍ يائسة لمقاومةِ النعاس وطرد مخاوفه:

من الذي يسكنُ أناناسةً في البحر؟
سبونج بوب مربعُ السروال!
أتُراهُ مساميٌّ وممتصٌّ أصفر؟
سبونج بوب مربعُ السروال!
إن كان هراءُ البحرِ أحدَ مُناك
سبونج بوب مربعُ السروال!
فاسقط فوق المركب وتخبّط كالأسماك
سبونج بوب مربعُ السروال!

كنتُ أرددُها معه، لكن بحزنٍ وخوفٍ شبيهين بما كان ليلتَها في نبرةِ صوتهِ وهو يغنيها.

استطاعَ أن يظلَّ مستيقظاً ما يقاربُ الساعتين بعد انقضاءِ موعدِ نومهِ اليوميّ، إلى أن كاد يغلبهُ النُعاس، فأدركَ أنهُ ما عاد يقوى على الصمود، وقرر بعد تفكيرٍ وحيرةٍ أن يخبئني في فمه، كي يستطيع النومَ مطمئنَّ البالِ بأن روسيكا حين تأتي لاختطافي لن تُفلَحَ في العثور عليّ.

كان لعابهُ دافئاً وحلواً، حلاوةَ الفاكهة التي يُحضرُها أندون كلَّ يوم من دكانه، الفاكهةُ التي كان يعشقها، وكانت رائحتها تعبقُ في فمهِ آنذاك، فلم أستطع إلا أن أبستَمَ لعبيرها وأغطَّ مثلهُ في نومٍ عميق.

حلمتُ ليلتها بأني تحولتُ إلى سبونج بوب، وبأن كوستا قد أسعدهُ الأمرُ كثيراً، ثم ركبنا منطادَه الأناناسة، وطارَ بنا إلى روما. كانت جميلةً جداً، تماماً كما وصفها اليورو الإيطالي في بيتِ «لالا»، رحنا نجوبُ شوارعَها بسعادةٍ غامرة بعد أن ترجلنا من المنطاد. وفجأةً، حلّ الظلام.. وخلت شوارعُها تماماً من البشر.. وإذا بأرصفتها قد اكتظت بتماثيل غريبة.. لا تشبهُ تلك التي وصفها الإيطالي. كانت وجوهها شيطانيةً مخيفة، فشددتُ على يدهِ وهمستُ بصوتٍ مُرتجف: «علينا أن نهربَ فوراً يا كوستا».. وما إن بدأنا الركض حتى سمعنا من وراءنا زلزلةَ حجارةٍ ترجُّ الأرض تحتنا، التفتنا، فإذا بتلك التماثيل البشعة المخيفة تركضُ خلفنا محطمةً تحتها بلاطَ الأرصفة.. حثثتُ كوستا على الركضِ أسرع، فتعثر وسقط على الأرض، وراح يجهش بالبكاء.. لكن دون صوت. توقفتُ عن الركضِ لإنهاضه، لكن بدأتُ أشعرُ حينها بتحولي من جديد إلى عملةٍ معدنية.. وبدأتُ أتدحرجُ مبتعداً عنه رغماً عني بعد أن عدتُ إلى هيئتي الحقيقية.. إلى أن هويتُ في بئرٍ سحيقةٍ مظلمة.. وسكنَ كلُّ شيء.. ثم بدأتُ أسمعُ من جوف تلك البئرِ صرخاتٍ بعيدة، أخذت تقتربُ وتعلو شيئاً فشيئاً، إلى أن سمعتُ صراخَ روسيكا الهستيريّ تقولُ باكيةً كالمجنونة وسطَ نحيبِ والديها:

لقد ابتلع اليورو.. إنهُ عالقٌ في حلقِه!

لا يشبهُ البحرُ الأسودُ بحرَ إيجه الذي نحبهُ أنا و«لالا». كان لونُهُ كئيباً حزيناً مثل اسمه، حتى نوارسه كانت تتهادى في سمائه الضبابيةِ بانكسارٍ وألم.. ربما كان ذاك ألمي وحزني وانكساري على موتِ كوستا. كان الأمرُ أشبهَ بالكابوس الذي كلّما حاولتُ جاهداً أن أصحوَ منهُ شدني بكلتا يديهِ إلى أعماقِ عتمته.. لا شيءَ أقسى في هذه الدنيا من فقدِ عزيز.. لا شيء أكثرَ إيلاماً من

تمني عودته إلى الحياةِ كلَّ يومٍ دون جدوى، فتغدو روحُك معلقةً بين عتمتين.. عتمةِ قبرهِ وحزنك. فكيف إذا كان هذا العزيزُ قد ماتَ على يديك.. لأجلك؟!

إن كان هراءُ البحرِ أحدَ مُناك

سبونج بوب مربعُ السروال!

فاسقُط فوق المركب وتخبّط كالأسماك

سبونج بوب مربعُ السروال!

بما يشبهُ الهذيان، ظللتُ أرددُ هذا المقطعَ باكياً على متن الباخرة لأربعةِ أيامٍ متواصلة، متأملاً وجهَ البحر الأسود الذي ما كان يشبهُ غيرَ حزني، إلى أن رسونا في ميناءِ «باتومي» في جورجيا.

استمرت حالةُ الهذيانِ هذه طوال فترةِ إقامتي في جورجيا، التي لا أعلم كم لبثتُ فيها، ولا أين ذهبت وبصحبةِ من، إذ كنتُ قد بدأتُ أفقدُ الإحساسَ بكل ما يدورُ حولي منذ أن قتلتُ كوستا، وباتت المشاهدُ تأخُذُ شكلاً هلامياً مُشوّشاً إلى أن اختفت تماماً، فلم أعُد أرى غيرَ ابتسامتِهِ البريئة.. وما عدتُ أسمعُ غيرَ أغنيته.

أتذكرُ من تلك المشاهد المشوّشة، أننا كنا في كاتدرائية مرقد العذراء، حين تقدّمَتِ روسيكا نحو جثمانه المسجى أمام المئات من المشيعين. كانت تنوي وضعي في جيبِ سترته كي أُدفنَ معه، فقد كانت أكثرَ من يعلمُ قدرَ محبتهِ لي وكم كان سيسعدهُ أن أكونَ رفيقهُ في قبره، لكنها فقدت الوعيَ وسقطت مغشياً عليها فور أن رأت وجهه، فسقطتُ من يدِها وتدحرجتُ بعيداً تحت المقاعد الخشبية. أظنهُ لم يكن إغماءً عادياً ذاك الذي أصابَها، فقد اضطروا لإسعافها إلى المستشفى. أما أنا، فقد عثر علي بين المقاعد في اليومِ التالي سائحٌ من جورجيا، وضعني في جيبه، وركبتُ معهُ تلك الباخرةَ العائدةَ إلى بلاده، ودخلتُ مرحلةَ الهذيان.



كاتدرائية مرقد العذراء – ڤارنا Varna – Dormition of the M. O. G. Cathedral

كادُ لا أصدقُ ما أرويه لك الآن.. كيف شاءت الأقدارُ أن أُلقى في بركةِ تلك النافورة، لتلتقطني منها لالا التي كانت حينها خارجةً من مبنى البلديةِ بعد أن استخرجَت منها بعض الأوراق، فقررَت

دون سواها ممن رأوني أن تمدّ يدها لانتشالي.. وكيف قرّرت بعد هذا أن تُلقيني من شرفة تلك القلعة في طقسٍ من طقوس التمني.. وكيف كانت تلك الصخرةُ التي اصطدمتُ بها سببَ وقوعي في قفص العنب المُحمّل بالشاحنةِ ووصولي إلى أندون، ومنهُ إلى يد زوجتهِ فابنِه.. لأكونَ سببَ موته بعد أن احتفظ بي لإيمانٍ أمهِ بأني هبةُ الرب التي لا يجوزُ رميُها.

إذاً، فلم أكن نعمةً كما ظنت الأم، بل كنتُ نقمةً ولعنة! أنا القطعةُ المعدنيةُ الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة، القادمةُ إليهم من أدنى الجنوب بين قطوف العنب.. لم أكن إلا عقرباً أرسلهُ إليهم القدَرُ في مهمةٍ محددة: قتلُ ابنهم!

في مكانٍ ما من جورجياSomewhere in Georgia |

أظنني لبثتُ في جورجيا زمناً طويلاً، لأن ما كنتُ فيه من هذيان وحزن ما كان لينتهي بوقتٍ قصير، ولأن حادثةَ موتِ كوستا التي وصلتُ بعدها بأيامٍ قليلة إلى مدينةِ «باتومي» وقعَت في نهايةِ عطلته الصيفية، ووصولي إلى مطارِ «تبيليسي» كان أواخرَ الشتاء، وهو المطار الذي كان آخر محطةٍ لي في جورجيا، وأولَ محطةٍ لانتهاءِ هذياني. فقد عدتُ فيه إلى الإحساس الجزئي بما يدورُ حولي، وبدأت أرى من جديد المشاهدَ الهلامية، وأسمعُ الأصواتَ المُشوّشة.. نداءات دخول البوابات.. ضجيج قاعةِ الوصول.. دردشات المنتظرين في بوابة المغادرة.. أصوات ضرب الأختام.. ضجيج محركات الطائرات.. خيالات حقائب ملونة.. أشباح مضيفاتٍ رشيقات.. رائحة معطفٍ جلديّ ممتزجة بعطرٍ رجاليٍّ بارد.. رنين هاتفٍ نقال.. وميض شاشتِه بوجهي كلما رنّ.. وأصابع طويلة، تسحب الهاتف من جانبي ثم تعيدُه.

المحطةُ الثانية من انتهاءِ هذياني، كانت على متنِ الطائرةِ التي حلقَت بنا فوقَ البحر الأسود، بحر أحزاني، فبدأتُ أستعيدُ وعيي أكثر حين رأيتهُ، كما لو كان هو الداءَ والدواء. كان بجانبي هاتفٌ نقالٌ مطفأ، تذكرتُ حين رأيتُهُ هاتف «أندون» ورحتُ أتخيّلُ على شاشتهِ السوداءَ صوري مع كوستا على شاطئ البحر، بجانب قلاعنا وقصورنا ومناراتنا الرملية، وخلف المجسم الرملي لكاتدرائية مرقد العذراء.. الكنيسة التي أقيمت فيها جنازتُه.

بوخارست – رومانياBucharest-Romania |

آخرُ محطاتِ انتهاءِ الهذيان كانت في مطار بوخارست، فما إن نزلنا من الطائرة حتى استعدتُ وعيي كاملاً، وزال التشويش تماماً عن الأصواتِ والصور، وعاد كلُّ ما يدورُ حولي مفهوماً بشكلٍ جليّ.

هل جرّبت أن تكون أداةً بيدِ ساحر؟

كان ذلك الشابُّ الروماني الوسيم ذو الأصابع الطويلةِ البيضاء الذي يحملني في جيبِ معطفه الجلديّ ساحراً يدعى «ستيفان». استعملني في عروضه قرابة الشهرين، طرتُ فيهما كريشةٍ أمام أعين الجمهور، واختفيتُ كما الهواء، وانحنيتُ بليونةٍ كقطعةٍ جلدية، وتحولتُ إلى مناديل مُلونة. شهران من الإثارة.. والنجومية الزائفة، إذ ظننتُ التصفيقَ على العروض التي كنتُ أشاركُ فيها تصفيقاً لي أنا، إلى أن أضاعني مرةً بينما كان يحضّرُ نفسَه لاعتلاء خشبة المسرح، فقدّم جميعَ العروضِ حينها من دوني، وحظي بنفسِ حرارةِ التصفيق التي كان يحظى بها عندما كنتُ معه، فأدركتُ أن ذلك التصفيق لم يكن لي أنا ولا للأرنب السمين أو الحمامة البيضاء أو المناديل الملونةِ الجميلة.. بل كان دائماً للذي جعل لهذه الأشياء قيمةً.. كان تصفيقهم للوهم، الوهم نفسه الذي ما إن استفقتُ منهُ حينها، حتى شعرتُ من جديد بأن قيمتي لا تتعدى ثمنَ ما يُشترى بي من بسطةٍ على الرصيف.

بعد أن تبخرَت أوهامُ نجوميّتي، مثلما تبخّرَت قبلها بموتِ كوستا أوهامٌ كثيرة، بتُّ أخشى تصديقَ أيّ شيء جديد، مخافةَ أن يكونَ وهماً. بتُّ أخافُ الوهمَ وأكرهُه، الوهم الذي تحبونهُ أنتم، بتُّ أكرهه، فقررتُ الدخولَ في عزلةٍ تجنبني الاصطدامَ بأيّ وهمٍ جديد: عزلة تغييب الحواس. أغمضتُ بصيرتي وصممتُ سمعي عما يدورُ حولي، ولذتُ في صمتٍ تام. كان الأمرُ في بدايته صعباً، فالتحولُ من كائنٍ فضوليّ كثير التصنت والتلصص والسؤال، إلى كائنٍ مُتعامٍ عما يدورُ من حوله. بدا أمراً مستحيلاً، لكنني بقيتُ صامداً، فأحكمتُ قبضتي على حواسيَ التي كانت تتخبطُ بعنفٍ محاولةً الانفلات، متعامياً عما أراهُ من صور، متغافلاً عن كل صوتٍ أو كلامٍ أسمعه، حتى الأحاديث التي كانت موجهةً إلي، تجاهلتها، وجاهدتُ بقسوةٍ كلَّ أهوائي ونزعاتي الصغيرةَ الكبيرة، متمترساً بالموتِ في وجه الحياة.. إلى أن تحوّلتُ حقاً إلى شيءٍ لا حياة فيه، تتناقله الأيادي وتتبادله الأدراج والجيوب والصناديق، دون أن يشعرَ بشيءٍ مما يدورُ من حوله، تماماً كما كانت عليه حالي في جورجيا.. مع فارقٍ وحيد.. أن الغيبوبة الأولى كانت قسرية.

مكثتُ على هذه الحال في شرنقتي المنيعة ما يقاربُ العام، ميتَ الحواس معطّلَ التفكير عديمَ المشاعر، إلى أن تسللَ ذات فجر من البعيدِ صوتٌ له سحرٌ غريب، سلَّ بحزنه الوقورِ خيوطَ شرنقتي، فانبعثتُ إلى الحياةِ من جديد.

كان ذلك الصوتُ صوتَ النداءِ إلى صلاةِ المسلمين.

إسطنبول – تركيا Istanbul-Turkey |

لا أدري إن كنتُ قد وصلتُ إلى تركيا من رومانيا مباشرةً، دون المرورِ ببلادٍ أخرى، ولا أدري أيضاً إن كنتُ قد زرتُ في رومانيا غيرَ بوخارست، كل ما أعرفه أني دخلْتُ غيبوبتي الإرادية في بوخارست ولم أصحُ منها إلا في اسطنبول. اسطنبول.. يا لسحر المدن المزركشة!

طلعت شمسُ ذلك اليوم بينما كنتُ لم أزل مأخوذاً بسحرِ نداءِ الصلاةِ ذاك، كنتُ حينها مع مجموعةٍ كبيرة من قطع اليورو بفئتيه في علبةٍ نحاسيةٍ مربعة مزركشة بنقوشٍ إسلامية، كالتي رأيتُها لاحقاً تزيّن الجدرانَ والأعمدةَ والحُلي والأواني الأثرية في غرناطة الإسبانية. وجدتُ صعوبةً في بادئ الأمر في التحدث من جديد بعد ذلك الصمت الطويل، صعوبةً في النطق نفسِه، وصعوبةً أكبر في التجرؤ على الكلام، الأمر الذي جعلَ نزلاءَ تلك العلبةِ يظنونني جديداً حديثَ السك، لكن الأوساخَ والخدوشَ على وجهيّ كانت وحدها كفيلةً بثنيهم عن مثل هذا الظن، وبأن تدفع أحدَهم إلى الانفجار بوجهي بغضب: «ما الذي يجعلك مرتبكاً لهذا الحد؟ أما التقيتَ في حياتك بنقودٍ قبلنا؟!».

يا للسخف!.. قلتُ في نفسي. هذا الأحمق الذي يبدو جلياً من نظافة وجهيه وقلةِ خدوشه أنهُ أمضى حياته كلها في مدينةٍ واحدة لم يغادرها، ولم يلتقِ إلا ببضعةِ نقودٍ مثله قليلة التجارب والاطلاع، يقولُ لي أنا هذا؟!.. أنا الذي أمضيتُ عمري في جيوب السائحين متنقلاً بين البلادِ والمدائن والقرى، والسهول والجبال والبحار والجُزر، والتقيتُ من النقود ما يفوقُ كلّ ما على وجهَيّ من خدوش.

غضبي من تلك الإهانة سهّل عليّ الخروجَ من حالةِ الارتباك تلك، فاندفعتُ إلى التحدث دونما كللٍ في شتى المسائل والأمور، غير مفسح لأي منهم المجالَ للتحدث، وبخاصةٍ ذلك اليورو صاحب الإهانة، الذي اكتفى كرفاقهِ بالاستماعِ إلي، والاستمتاعِ بحكاياتي الشيقة، إلى أن غدوتُ في وقتٍ قصير خطيبَ تلك العلبةِ النحاسية.. وزعيمَ من فيها.

كانت تلك العلبةُ موضوعةً بين كتبٍ مرصوفة على رفٍّ خشبيٍّ من رفوفِ مكتبة في منزلِ تاجرٍ تركي، وكان قد خصصها لقطع اليورو، بينما وضعَ القطعَ الخاصةَ بالعملاتِ الأجنبيةِ الأخرى في علبةٍ نحاسيةٍ ثانية ملاصقةٍ لها، أكبرَ حجماً، وأجملَ نقشاً من علبتنا.

النقود الأجنبية في العلبة المجاورة كانت كثيرةَ الصخب، دائمةَ اللهو والمزاح والضحك، فكانت أجواءُ تلك العلبة أشبهَ بأجواء الحفلات والرحلات الجماعية، الأمرُ الذي شدّني بقوة وجعلني أتمنى الانضمامَ إليهم، إذ كنتُ أشعرُ بشوقٍ شديد إلى اللهو والضحك اللذين لم أذق طعمهما منذ رحيل كوستا، فوقعتُ بين نارين.. نار التنعّم بالزعامة والخطابة في علبة اليورو.. ونار الحنين إلى البساطة والضحك والتمتع باللعب في العلبة الأجنبية.

ما زاد الأمرَ تعقيداً هو وصولي بعد بضعةِ أسابيع إلى نقطةٍ لم أعد أجدُ فيها ما أقوله، إذ لم أترك حكايةً أعرفها ولا مغامرةً عشتُها من قبل إلا ورويتها، فجربت تكرارَ بعض الحكايات أملاً بأن يكونوا قد نسوها، لكنهم سرعان ما كانوا ينبهونني إلى أنهم قد سمعوها من قبل، فاضطررتُ إلى تأليف قصص ومغامرات جديدة من نسج الخيال، وقد نجحَت هذه الفكرة ولاقت استحساناً وتصديقاً قريبين مما لاقته المغامراتُ الحقيقية، وظننتُ أني قد تجاوزتُ المحنة وأني استطعتُ الحفاظَ على مكانتي كزعيم. لكنني وجدتُ نفسي بعد أسبوعين غيرَ قادرٍ على ابتكارِ أيِّ قصةٍ جديدة، بعد أن نضبت مخيلتي تماماً، وهنا تنامت بداخلي الرغبةُ في الهروبِ إلى العلبة المجاورة، ربما الهروب من الفشل.. أو من الجمود والرصانة والزعامة.. إلى النقيض.

ولأن التمني لم يكن كافياً لنقلي إلى العلبة المجاورة، لجأتُ إلى حيلةٍ كانت كفيلةً بحفظ مكانتي، بانتظار أن يأتي الفرَج.

كانت الحيلةُ هي اللجوء إلى الصمت، مدّعياً أنه طقسٌ من الطقوس التأملية التي اعتدتُ أن أمارسها في كل عام، وقد انطلت الحيلةُ عليهم بسهولةٍ لم أكن أتوقعها. ربما بسبب حاجتهم إلى أن يبرهنوا لأنفسهم بأنهم أحسنوا اختيارَ الزعيم، وما من دليلٍ أكثر شاعرية من أن يكون الزعيمُ حكيماً، له طقوسه السنوية الخاصة بالتأمل.

أمضيتُ فترةَ الصمت الطويلة تلك في التصنت على لهو جيراننا في العلبة الأجنبية، والاستماعِ إلى بعض أحاديثِ مَن في علبتي الذين استغلوا فترة صمتي التأملية في تجاذبِ أطراف الحديثِ كسابق عهدهم، بالإضافةِ إلى مراقبتي لحياةِ أسرةِ التاجر التركي.

كان ذلك التاجرُ الخمسيني الذي يُدعى «أهمت» كثيرَ السفر بلا شك، نظراً للكم الكبير لما تجمّع لديه من عملاتٍ من شتى البلدان في العلبتين.

كانت لدى «أهمت» أسرةٌ كبيرة، كلُّها من الإناث.. «عايشة» الطالبة الجامعية كانت أكبرَ أخواتِها، وأكثرَهن قرباً من أبيها، وأكثرهن دخولاً إلى مكتبته. كانت تستلقي كل يومٍ قبالتنا على أريكة جلدية، ممسكةً كتاباً بإحدى يديها، وبالأخرى تتحسسُ عقدَها الماسيّ المُدلى فوقَ صدرها الأبيض الموشى بالنمش، محركةً شفتيها الرقيقتين في القراءةِ بطريقةٍ مضحكة، كانت تذكرني بالأسماك الذهبية.

كثيراً ما تأملتُ تلك الفتاة. كانت تشبهُ أيَّ فتاةٍ أوروبية، وتعيشُ في القسم الأوروبي من بلادها، وترتدي ملابسَ كالتي ترتديها الأوروبيات، وتقرأ نفسَ ما يقرأن من كتب، وتستمعُ إلى نفس أغانيهن، ولديها حبيبٌ مثلما لديهن، لكنها وعلى الرغم من كل هذا، كان في أعماقها شيءٌ بعيدٌ مختلف، لم أستطع تبيّنه.

اسطنبول.. التي لم أرها إلا مرةً واحدة في طريقي إلى مطارِ أتاتورك لمغادرتها، سحرتني بكل ما فيها من بهاء خضرة الأشجار والجبال وخشوع القباب فوق مساجدها وغرور القصور العثمانية الرابضةِ على كتف البوسفور.



Istanbul – اسطنبول

كان الرحيلُ في بداية الصيف، بعد أن كنتُ قد أمضيتُ في بيت «أهمت» بضعة شهور، قضيتُ آخرَ شهرين منها في الحالة التأملية الكاذبة، والتي كنتُ قد سئمتها وضقتُ ذرعاً بها بعد أن تزايد تذمرُ شعب علبتي النحاسية من طول طقس زعيمهم، الطقس الذي اضطررتُ إلى قطعه للاضطلاع بمسؤولياتي إزاء ما تناهى إلى أسماعنا من تطوراتٍ وشيكة، إذ علمنا بنيّة «أهمت» في أخذ عائلته في رحلةٍ صيفية إلى إسبانيا، الأمر الذي يعني بأنهم سيأخذون بعضنا في رحلتهم هذه، وبالتالي هناك احتمالٌ كبير بأن أكون من بين مَن سيأخذونهم، خاصةً وأنني كنتُ ملقىً على قمةِ الكومة في العلبة. لذا توجب عليّ تعيينُ خليفةٍ لي في زعامةِ العلبة للحفاظ على ذلك العرف الذي ابتدعناه.

وقعَ اختياري على ذلك اليورو الذي أهانني عند وصولي، وقد اخترتهُ لأردّ له الجميل، أجل.. فلولا إهانته تلك لكنتُ ربما حتى هذه الساعةِ مهزوزاً أتلعثمُ في الكلام، غير قادرٍ على الرجوعِ كسابقِ عهدي الذي كنتُ عليه قبل غيبوبةِ بوخارست.

جاء يومُ الرحيل، وكما توقعنا فقد انتشلتني «عايشة» من بين من انتشلتهم من العلبة وألقتنا في حقيبة كتفها. ودّعتُ من ظلوا في العلبةِ وداعاً سريعاً، وودّعتُ آخرَ ما سمعتُ من الضحكات المجلجلة من علبةِ العملات الأجنبية، وانطلقنا بصحبةِ الأسرةِ التركيةِ إلى إسبانيا، لأودِّعَ هناك في مطارِ مدريد صديقتي السرّية «عايشة» التي اشترت بي من سوق المطار علكةً.. كالتي تمضغها أيُّ فتاةٍ أوروبية.

مدريد – إسبانيا Madrid-Spain |

1 ..2 ..3 ..4 ..5 ..6
1 ..2 ..3 ..4 ..5 ..6
1 ..2 ..3 ..4 ..5 ..6

وجدتُ لي تسليةً في المنتزهِ ذاك الصباح بأن أعدَّ تشقلباتي في الهواء انطلاقاً من كف «ألنزو» ورجوعاً إليها، التسلية التي بدأت بالعدّ ثم تحولت إلى تسليةٍ بالتحقق من ثبات العدد على ستة. كيف لديه القدرة على رميي في كل مرةٍ محافظاً على عدد الشقلبات دون زيادةٍ أو نقصان؟! تساءلتُ بإعجاب، لكن هذا الإعجاب ما لبث أن تلاشى، وتلاشت معه متعة التسلية حين صار الأمرُ مملاً من كثرةِ تكراره، فتوقفتُ عن العد ورحتُ أسلي نفسي بمراقبة مرتادي المنتزه. كان معظمهم من السياح، فقلتُ سأخمن جنسياتهم وأتوقع ما في جيوبهم من عملات معدنية:

لا شك بأنهم جميعاً يحملون قطعَ اليورو بجميع فئاتها وعلى اختلاف انتماءاتها.. كم بومةً تحوم حولي الآن في جيوب هؤلاء؟.. مضى وقتٌ طويل دون التقائي بيورو يوناني.. هذا الرجل صينيٌّ بكل تأكيد.. أو ياباني ربما.. أو حتى كوري!.. حسناً سأستثنيه من لعبة التوقعات لكثرة احتمالات جنسيته.. هذا عربيٌّ بشكل قاطع.. أستطيع تبيّن هذا من ملامحه العربية الواضحة.. مممم حسناً، أتوقع أن يكون في جيبه عشرة قروش مصرية.. أو خمس هللات سعودية.. أو ربما مئة مليم تونسي.. اللعنة! الاحتمالات هنا تفوق الاحتمالات المتعلقة بذلك الآسيوي بأضعاف كثيرة.. ولا شك بأني سأقعُ في نفس الورطة مع الأوروبيين الذين يشبهون بعضهم إلى حد سيجعل من تحديد بلدانهم أمراً مستحيلاً أيضاً.. تباً للبشر ما أكثر بلدانهم. قلتُ لنفسي، واكتفيتُ بأن أتسلى بتأمل ذلك الشاب الذي كان ما يزال يتسلى برميي وتلقفي، والذي لم أكن قد فهمتُ بعد سببَ جلوسه في المنتزه.

كنتُ قد وصلتُ إلى يد «ألنزو» من كشك السجائر المقابل لبوابة المنتزه، والذي وصلتُ إليه بعد تنقلاتٍ قليلة استغرقت أسبوعاً منذ وصولي إلى مطار مدريد، الأسبوع الذي انقضى دون ما يستحق الذكر، سوى أمرين: ارتعاشات نهد نادلةٍ في حانة، وضعتني في جيب قميصها قبل وصولي ليد ألنزو بليلتين.. تلك الارتعاشات التي كانت لها ذبذباتٌ كالكهرباء ما انفكت تدغدغني فتجعلني أبتسمُ بانتشاء. والأمر الآخر كان حرارة جسد المضيفة الكاتالونية التي خرجتُ معها من سوق المطار، الحرارة التي اخترقت موجاتها الحارقة جدارَ جيب تنورتها وصولاً إليّ، حتى شعرتُ كأني على وشك الانصهار.

لألنزو يدٌ باردة، تشبه برودةَ المعادن، وهو باردُ الأعصابِ أيضاً. توقّف فجأةً عن رميي ونهض برشاقةٍ لا برودة فيها ليصافحَ صديقته ويقبّلها، وراحا يتمشيان في الممرات الجارية بين الأشجار كالجداول العذبةِ عذوبةَ صوتِ صديقته، الصوت الذي شعرتُ برابطٍ خفي بين عذوبته وحرارة جسد المضيفة وارتعاشات نهد النادلة، فوجدتني أحاولُ جاهداً التوصل إلى ماهيته في حدود إدراكي المعدني للأسرار البشرية، فقلتُ محاوراً نفسي إن الصوتَ والحرارةَ والاهتزاز ما هي إلا ظواهر فيزيائية.. أيعقلُ إذن أن تكون الفيزياء هي ذلك الرابط الخفي؟ لا، ليست الفيزياء.. لعلها الأنوثة..

خلال سيرهما في المنتزه، ظل ألنزو ممسكاً بي يحك وجهَ بومتي بإبهامه بحنوٍ كمن يمسّدُ رأسها لتنام، بينما بإبهام يده الأخرى كان يمسّد ظهرَ كف صديقته بنفس الحنوّ.. وكأن قلبه يقول: أحتاج قربكما معاً، المال وأنتِ.

كان حديثهما يدورُ حول رحلتهما بعد يومين إلى غرناطة لالتقاء رجل فرنسي اسمهُ «مارتن». فهمتُ من حديثهما أنه تاجر آثار، وأن بحوزتهما ما ينويان بيعه له، وهو شيء ظلا مصرّين بشكل غريب كلما جاءا على ذكره أن يلمحا إليه تلميحاً، متجنبين ذكر اسمه كما لو أن أحداً ثالثاً كان يسمع حديثهما.

قبل أن يفترقا على باب المنتزه، ناولني ألنزو لصديقته قائلاً لها بنبرةٍ مترددة: «خذي هذا اليورو اليوناني. سنحتاج إلى الكثير من الحظ في غرناطة، ولا شك بأن البومة المنقوشة عليه ستمنحنا بعضه». لكنها ضحكت وأعادتني ليده قائلةً: «تعلم أني لا أؤمن بهذه الترهات يا ألنزو، فاجلبه أنت معك إن كنت حقاً مؤمناً بما تقول». فأجابها: «بالطبع مؤمن، لكن أخشى أن أضيعه، فلستُ بمثل حرصك».

«ضعه إذن في جيب محفظتك الجميلة تلك ولن يضيع» قالت بصوتها العذب باسمةً وقبّلته وانصرفت، فيما مضى ألنزو في سبيله، بعد أن وضعني في جيب محفظته التي لم أجدها جميلةً على الإطلاق، بل على العكس، كانت من أقبح ما شاهدته من محافظ، مصنوعة من جلدٍ رديء ولها لون الصدأ وخشونته، فأدركتُ أن الفتاة ما وصفتها بالجميلة إلا ساخرةً، وأن ابتسامة ألنزو لما قالته لم تكن إلا استقبالاً لسخريةٍ قد اعتادها منها.

تفكرتُ خلال إقامتي في محفظة ألنزو القبيحة بعلاقته بصديقته الجميلة، وكيف أن الحب يجعل الإنسان أكثرَ تسامحاً مع من يحب، فلا تغضبه سخريته بل يقابلها بالابتسام. وكيف يقرّب العشقُ بين الحبيبين حتى يغدوان كما لو أنهما شخصٌ واحد تشكّل في جسدين متلاصقين، تسكنهما الأحلام والأوجاع والرغبات والأسرار نفسها، وينتظرهما المصيرُ نفسه.

تقابل العاشقان صباحاً في محطة القطار في الموعد الذي ضرباه وانطلقا إلى غرناطة، وفور وصولهما هناك توجها مباشرةً للقاء السيد مارتن الذي كان بانتظارهما في «حدائق العريف» كنتُ قد سمعتُ عن جمال تلك الجنة الأندلسية من يورو إسباني ممن التقيتهم في علبة التاجر التركي «أهمت».

تجولوا في أرجاء قصر الحمراء متحدثين عن الصفقة المشبوهة، ثم توجهوا إلى مطعم قريب لتناول طعام الغداء، جلس العاشقان في المطعم قبالة السيد مارتن. كان بقرابة الخمسين، أشيب الشعر، وسيماً مثل نجم سينيمائي، يضع نظارةً طبية رقيقة تناسب صفاء وجهه ودقة ملامحه، وكان لا ينفكّ يدفعها بسبابته إلى الوراء كلما وجّه حديثه إلى صديقة ألنزو، كما لو كان يحاولُ بحركته المكرورة تلك إخفاء ارتباكه بجمال الفتاة مكتنزة الشفتين، أو ربما كان يحاول ضبط نظره كي لا يفوته شيءٌ من تفاصيل ذلك الجمال الإسباني.



Granada – Alhambra Place قصر الحمراء – غرناطة

«الإسبانياتُ أجملُ نساء أوروبا» قال السيد مارتن موجهاً حديثه لألنزو في غزل صريح لصديقته التي ابتسمت ابتسامةَ من اعتادت سماعَ إطراء الرجال، لكن ألنزو باردَ الأعصاب لم يرقه ذلك التلميح، فقال بما يشبه الغضب ناظراً إلى ساعة يده: «حسناً يا سيد مارتن، علينا الانصراف الآن» فابتسم الفرنسي بارتباك قائلاً: «أجل بكل تأكيد، اترك حقيبتك وخذ حقيبتي».

لم أكن حينها في محفظة ألنزو، بل في حقيبته تلك، إذ كانت صديقته قد نبهته في القطار إلى أن البومة تجلبُ سوء الطالع، لا حُسنه كما يظن، واقترحت عليه أن يضعني في الحقيبة التي سيعطيها للسيد مارتن، لعل سوء الطالع يغادرهما إلى الأبد بمغادرتي مع السيد مارتن إلى فرنسا، لكن ألنزو أبدى استغرابه قائلاً بأنهُ كان يظنها لا تؤمن بمثل هذه الأمور، فابتسمت لهُ وقالت ناقرةً بإصبعها الرقيق على صدره: «ما دام قلبك مؤمناً بها فقد آمنت، لكن صدقني.. البومة نذير شؤم، فإما أن ترميها من الشباك، أو أن تدسها لمارتن كما اقترحت».

ليون – فرنسا Lyon-France |

لم يكن السيد مارتن سوى وسيط بين ألنزو وثريٍّ فرنسيّ يُدعى السيد «ألبرت»، وأعني بالثري كلَّ ما يعنيه هذا الوصفُ من معنى، فبعد أن كدتُ أُرمى من القطار كأي قاذورة أو شيءٍ حقير، وجدتُ نفسي في قصرٍ بخمس بوابات، له نوافذ أكثر من نوافذ ذلك القطار، وحديقةٌ بحجم الحديقة التي التقى فيها ألنزو حبيبته في مدريد.

أن تكون في قصر منيف، يعني أن تعيش غير الذي اعتدت أن تعيشه خارجه، وأن ترى غير الذي ألفتهُ عيناك، فترى رجلاً لهُ مهابةُ جنرالٍ ينحني أمام طفلٍ انحناءَ سنبلةٍ لهدير دبّابة.

أن تكون في قصرٍ منيف، يعني أن تكون بين كل ثمين، من أوانٍ وتحفٍ ولوحاتٍ وسجادٍ وأثاث وحليٍّ وكنوز.. وأن تعتاد ألا يفزعك تمثالُ عفريتٍ تدلى في عتمة الممر، أو ذئبٌ كبيرٌ محنط، حدّقت عيناهُ في ضوء القمر.

أن تكون في قصرٍ منيف يعني باختصار، أن تكون خارج الدنيا.. ولكن.. لا شيء منها تشتهيه إلا وكان لديك.

في مكتبه السرّي في القصر، لم ينتبه الثري المُسنُّ ألبرت لوجودي داخل الحقيبة حين أخرج ما كان فيها، بل وجدَتني صباح اليوم التالي الخادمةُ التي أمرها بالتخلص من الحقيبة الفارغة، فدسّتني في جيب ردائها الأنيق قبل أن ترمي الحقيبة في مكب النفايات، وأمضيت رفقتها يوماً كاملاً جبتُ خلالهُ أجنحة القصر الفاخرة، ودخلتُ بعض غرفه الخلابة وحماماته البراقة وتنزهتُ في حديقته الغنّاء.

بعد يوم طويل من العمل، عادت الخادمةُ إلى حجرتها الصغيرة في مسكن الخادمات داخل القصر، وقبل أن تستحم وتخلد إلى النوم، وضعتني في محفظةٍ جلدية صغيرة.

لم يكن في تلك المحفظة سوى بعض القطع من اليورو الفرنسي بفئاته المختلفة، كنتُ أنا اليورو الأجنبي الوحيد بينهم، فاستقبلوني بحفاوةٍ كبيرة تليقُ بضيفٍ يزورُ بلادهم للمرةِ الأولى. كان بعضهم لم يلتق من قبل بأي يورو يوناني، فراحوا يتفحصون رسم البومة بافتتان ويسألونني عما تمثله، الأمر الذي أسعدني كثيراً، فوجدتني بحماسةٍ أسهبُ في الحديث عن أصول بومتي وعن الحضارة الإغريقية، كما حدثوني هم عن «ماريان» المنقوش على وجوه بعضهم وقصوا لي بعض الحكايات عن الثورة الفرنسية.

بعد ثلاثة أيام من مقامي في تلك المحفظة مع أصدقائي الفرنسيين في القصر، أخذت الخادمةُ محفظتها ووضعتها في حقيبة كتف وخرجت مساءً مع بعض زميلاتها إلى السوق، حيث أوقعت المحفظة دون أن تنتبه بينما كانت تُخرج من الحقيبة هاتفها المحمول. لم تمض نصفُ ساعةٍ حتى امتدت يدٌ وأخذت المحفظة عن الأرض بكل هدوء.

كان الرجل الذي وجد المحفظة يسكن حياً من أفقر الأحياء في ليون، يعيش بمفرده في شقةٍ صغيرة متهالكة الأثاث نتنة الرائحة عالية الرطوبة، يمتد فوق سريره الخشبي بين الجدارين حبلُ غسيل علّق عليه ملابس داخلية مهترئة بمقاس «اكس اكس لارج». تعجبت حين رأيت حبل الغسيل ذاك، والمكان الذي اختاره له دون سواه من أركان شقته، وتساءلت عن شكل الأحلام التي يراها رجلٌ يغمض عينيه على مشهد ملابسه الداخلية المتدلية فوق رأسه.

حين دخلنا شقته وضع المحفظة على طاولةٍ صغيرة بجانب السرير، ثم بدل ثيابه وتناول عشاءه ونام، وظل ليومين متتالين يغادر المنزل صباحاً ولا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل، لم

نسمع خلالهما صوته ولو حتى بحديث هاتف، ولم يكن أيضاً يشغل التلفاز، كان صامتاً تماماً صمت منزله. في الليلة الرابعة، وبينما كنا نحكي النكات لبعضنا ونضحك في صخب، إذا بصوتٍ من خارج المحفظة يصرخ بغضب: «اخرسوا.. كفوا عن الضحك!».

«هل حسِبتم الجنون أن تفقد عقلك وينتهي الأمر؟» قال أقدمُنا في المحفظة خاتماً حكايته التي رواها لنا عن الشهور الثلاثة التي أمضاها قبل سنوات في مصح أمراض نفسية بصحبة امرأةٍ مجنونة. قال إنها كانت تحدثه وتسمعُ حديثه، وإنها قد عمدت أكثر من مرة في لحظات غضبها منه إلى تعذيبه بشخط حوافه بالجدران، ثم عرضَ لنا حوافه التي كانت متآكلةً فعلاً وكثيرة الخدوش والندبات. لكن أكثرنا كان يستمعُ غيرَ مصدق لما يقول، وبخاصة الجزء المتعلق بقدرتها على سماع حديثه، حتى اليورو الذي كان قبلاً قد سمع منه تلك الحكاية وصدقها تراجع عن تصديقه وانضم إلى جوقة المشككين المكذبين للرواية، ربما لأن الشك أحياناً يكون شعوراً معدياً كما الإيمان والتصديق، أو ربما تجنباً لسخرية أحد اليوروات الذي ما انفك يلقي تعليقات ساخرة طوال سماعنا للحكاية، السخرية التي وإن أضحكتنا قليلاً لكنها لم تفلح بأن تجلي عن قلوبنا ما اعتراها من خوف حين صرخ بنا ذلك الرجل أن نصمت.. الخوف الذي أخرسنا تماماً، فلم يجرؤ أحدنا على التحدث إلا بعد أن غادر الرجل منزله صباحاً، فكان أول من استعاد رباطة جأشه وبادر بالكلام هو ذاك اليورو القديم حين قال فجأةً ودون مقدمات «أجل، لقد سمع حديثنا وضحكاتنا، لا تتعجبوا، فإنه مجنون» ثم راح يقص علينا حكايته تلك مع المرأة المجنونة، وحين انتهى، سألته هامساً خشية أن يسمعني الرجل رغم يقيني بأنه قد غادر: «ولماذا المجانين؟ أي ما الذي يمنحهم دون سواهم القدرة على سماعنا؟» قلتُ وقد انتابني شعورٌ مفاجئ بتصديق زعمه، أو برغبة التصديق، فأجاب: «لا أدري».

حين عاد الرجل ليلاً إلى منزله، كان يغني ضاحكاً أغنيةً حزينةَ الكلمات واللحن، فتعزز لدينا الظن بأنه مجنون. كنا قد لذنا إلى الصمت فور سماع طرطقة المفتاح في قفل الباب، وبقينا صامتين هكذا نستمع بشيءٍ من الخوف إلى غنائه، إلى أن قال اليورو الساخر مخاطباً الرجل: «أتظن صوتك جميلاً يا شوال الحنطة؟» فتوقف عن الغناء من فوره منقضاً نحونا، وفتح سحّاب المحفظة بغضب ونثرنا على الطاولة، وقال بهياج كلبٍ بوليسي شد على أسنانه قُبيل انقضاضه على لص: «من السافلُ الذي تفوّه بهذا؟» ثم أخذ يمسك بنا واحداً تلو الآخر، متفحصاً وجوهنا الجامدة، كمن يبحث فيها عن أي تعبير يشي بارتباك الفاعل. ولما استيأس أطلق صرخة غضب مدوية، أتبعها بضحكةٍ مجلجلة، ثم قال عابساً: «حسناً أيتها الخردوات البائسة، أعرفُ جيداً كيف أنطقكم» وأعادنا إلى المحفظة مغلقاً علينا السحّاب، ثم ارتمى على سريره تحت ملابسه الداخلية المتراقصة على إيقاع هواء النافذة، وراح يكمل أغنيته الحزينة، إلى أن أخذ صوتُ غنائه يخبو شيئاً فشيئاً حتى تلاشى للحظةٍ، أعقبتها همهماتُ الشخير.

«هل آلمك التعذيب» سألت اليورو القديم هامساً، فأجاب: «آلمتني المهانة».

بعد أن كسرتُ بسؤالي ذاك حاجز الصمت، بدأت مطارق اللوم والتوبيخ تنهال تباعاً من جميع من في المحفظة على رأس اليورو الساخر، الذي تلقاها باستسلام تام، لاقتناعه بأن حماقته وحدها هي التي ورطتنا وجعلتنا دون ذنب منا، عرضةً لتعذيبٍ لا نعلم شكله ومداه.

وحده اليورو القديم لم يشارك في حفلة التقريع تلك، إذ كان غارقاً في وجومه، شارداً عنا إلى مكانٍ بعيد، ربما إلى ذكريات عذاباته..

صباح اليوم التالي، استيقظ المجنونُ من نومه، ومارس ما اعتاد ممارسته بصمتٍ كل صباح استعداداً للخروج من المنزل، دون أن يلتفت إلى المحفظة أو يعيرها أدنى اهتمام، بينما كنا نحن نراقبه من داخلها بكثير من الخوف والترقب، مثل جراء قطةٍ تكورت تحت أمها، شادّةً عيونها الخائفة نحو كلبٍ يحوم حول مخبئها.

غادر الرجلُ مقفلاً وراءه باب المنزل، فتنفسنا الصعداء، ولم نلبث حتى خُطفت أنفاسُنا من جديد حين سمعنا طرطقة المفتاح في قفل الباب مرةً أخرى، لنرى المجنون قد عاد مسرعاً نحونا، فأخذ المحفظة ودسها في جيب سرواله القماشي الفضفاض، وغادر المنزل.

بدأ العذاب يقترب، ومع كل خطوةٍ كان المجنون يخطوها مبتعداً بنا كان الرعبُ يزداد تعاظماً في قلوبنا، حتى وصل الأمرُ بواحدٍ منا من فئة العشرين سنتاً حدّ البكاء. فتح المجنون سحاب المحفظة، ولم يجد صعوبةً في إيجاده إذ كان لا يزال يبكي، فانتشله من بيننا وقال بعد أن قبّله: «لا تخف يا صغيري، لا تخف» وما هي إلا بضعُ خطوات مشاها، حتى وضع اليورو الباكي على حافة شباك على جانب الطريق، وأعاد إغلاق المحفظة مكملاً سيره.

«علينا التظاهر بالبكاء إذن» همس أحدنا، ولم يكد يتمم جملته حتى شرع واحدٌ تلو الآخر بالتظاهر بالبكاء، فتحولت المحفظة في لحظات إلى ما يشبه شعبةً لتلاميذ الروضة في أول يوم لهم في المدرسة.

لم نشارك أنا واليورو الساخر والقديم في مسرحية التذلل تلك لاستغفال المجنون، الذي لم يستطع تمالك نفسه عند سماع صوت تباكيهم فتوقف عن سيره، وراح يصفع فخذيه بكفّيه ضاحكاً بشكل هستيري لفت انتباه المارة من حوله، فسأله شابٌ ممن يعرفونه ضاحكاً: «ما الذي يضحكك يا هنري؟» فأجابه مقهقهاً: «هؤلاء الحمقى، يريدون خداعي».

«أي حمقى؟» سأله الشاب بمكر، كمن يحاول انتزاع إجابةٍ منه تضحك من استوقفهم الأمر.

«لا شأن لك أنت، هيا انصرف من هنا» أجاب المجنون بغضب وهرول مبتعداً بين أزقة الحي الفقير.

«سأسلمُ نفسي» قال اليورو الساخر بصوتٍ مرتجف بالكاد استطعنا سماعه من ضجيج لهاث المجنون الذي كان مستمراً في الهرولة متهادياً كطفلٍ سمين.

«لا أظن هذا قد عاد مجدياً، فقد صرنا جميعاً مذنبين في نظره» أجاب اليورو القديم.

لكن الساخر صاح قاطعاً الطريق أمام أي محاولة لثنيه عن قراره: «يا سيد هنري.. يا سيد هنري، ألا تسمعني؟ أنا من سخر منك الليلة الماضية، يا سيد هنري، أرجوك أجبني إن كنت تسمعني».

هل تخيلتَ نفسكَ يوماً معلقاً على حبل غسيل، بملقط بلاستيكي ملوّن؟

يبدو أن اعتراف الساخر ثنى المجنونَ هنري عما كان ينوي فعله بنا، فأعادنا إلى منزله وسارع إلى إنزال ملابسه الداخلية عن حبل الغسيل ليعلقنا بدلاً منها، قبل أن يغادر من جديد.

«ما الذي ينوي فعله هذا المجنون؟» سألتُ اليورو القديم، بحكم خبرته بالمجانين.

«لا أظنه ينوي إيذاءنا. ربما يريد التسلي بنا قليلاً» أجاب.

«ها قد صرنا تسليةً للمجانين!» قال الساخر بنبرته التهكمية، التي بدا أنه استعادها بعد أن خلصه اعترافه البطولي من شعوره بالذنب.

تسللت ريحٌ خفيفة من الشباك البعيد، فتأرجح الحبلُ بنا حتى غفوت. حلمتُ بكوستا.. رأيته يصنعُ من رمل الشاطئ تمثالاً للمجنون هنري، ثم يدعوني إلى تحطيمه معه، فنفعلُ ضاحكيْن،

ونرتمي على ظهرينا فوق ركامه بسعادةٍ وارتياح.. نتأمل السماء الصافية فوقنا.. يمر منطاد الأناناسة.. يطل منه سبونج بوب، ويبتسم لنا ملوّحاً.. نلوِّح له باشتياق.. يغيبُ المنطاد وراء غيمةٍ كبيرة ظهرت في السماء فجأةً.. تظهرُ غيمةٌ ثانية.. وثالثة.. تمتلئ السماءُ بالغيوم.. تهبطُ الغيوم ببطء نحونا تباعاً.. وكلما اقتربت أكثر صارت تشبه ملابس هنري الداخلية العملاقة.. إلى أن هوى فوقنا سرواله الداخلي المهترئ.. فغطى وجهينا، وحجب عنا الضوء.. فصرخ كوستا.

استيقظتُ مفزوعاً، لأجد نفسي مغطىً فعلاً بسروال داخلي مهترئ، ألقاه المجنونُ فوقي. كان السروال شديدَ البلل، لا تزال فيه بقايا الصابون ذي الرائحة الحادة. لم أكن وحدي من غطاه السروال، إذ غطى معي اليوروين ذوي الفئتين الصغيرتين، المعلقين عن يميني وشمالي على حبل الغسيل، فلم يستطيعا منع نفسيهما عن الضحك.

حاولتُ أن أنهاهما، خشية أن يُغضبا هنري كما أغضبه ضحكنا على النكات أول مرة، لكنهما لم يستجيبا، ووقع ما خشيته. أزال المجنون سرواله من فوقنا بغضب، وانتزعهما من الملقطين، وأحضر مفكاً ومطرقة، وراح يدقهما بعنفٍ على البلاط إلى أن أحدث في كل منهما شروخاً أتلفتهما، وجعلتهما غير صالحيْن للتداول إلى الأبد. ثم أمسك بهما صانعاً من سبابتيه وإبهاميه كماشتين، ووقف أمام سريره عارضاً علينا ما أحدثه فيهما، صارخاً بنا: «هل من أحدٍ آخر تضحكه سراويلي؟» ثم رماهما بغضب من النافذة، وخلع بنطاله بحركات متشنجة، ووقف أمامنا من جديد وراح يدور حول نفسه صارخاً: «ماذا عن هذا السروال أيضاً؟ ألا يضحككم؟».

الحق أقول، كان منظره وهو يدور حول نفسه مثل فيلٍ صغير في السيرك، بسرواله الداخلي المرقط المهترئ الذي يختبئ نصفه تحت كرشه الأبيض، مضحكاً حقاً. لكن أحداً منا بكل تأكيد لم يجرؤ على الضحك.

بعد أن هدأت سوْرةُ المجنون، ارتدى بيجامته وتناول عشاءه بصمت ونام مبتسماً.

في الليلة التالية، عاد هنري سعيداً إلى منزله، دخل وهو يغني أغنيةً سعيدة غريبة الكلمات، أظنه كان يرتجلها من رأسه، تتحدث عن قرنبيطة تدّعي أنها جزرة، وموزة ترتدي قشرتها بالمقلوب. كان لحنها غبياً لكن يدل على الفرح. وعندما وقعت عيناه علينا، توقف من فوره عن الغناء بخجل، كمن تفاجأ بوجود ضيوفٍ في منزله.

بعد أن بدّل ثيابه وتناول عشاءه، أطفأ ضوء الحجرة وارتمى على السرير تحتنا، حاملاً بيده شيئاً صغيراً لم ندرك ما هو إلا حين شغّله مسلطاً ضوءه علينا.. كان قلماً مزوداً بكشّافٍ صغير. راح يمر ببقعة الضوء علينا واحداً تلو الآخر، إلى أن وصل عندي، فقال: «أنت أيها اليورو الغريب، لماذا ابتعدت هكذا عن أصدقائك الفرنسيين؟ أتظن نفسك خيراً منهم» سألني متصنعاً الغضب.

«من أين أنت؟» سألني ناهضاً عن وسادته، مقرباً وجهه مني ليرى نقشي بوضوح. لكن الملقط كان يغطي معظم الرسم، فلم يستطع تبيُّنه. أجبته: «من اليونان.. أنا يورو يوناني» ففكني من الملقط وراح يحملق بالبومةِ مسلطاً عليها ضوء قلمه، ثم سألني: «وكيف أتيت إلى فرنسا؟».

«وصلت إلى هنا بعد رحلةٍ طويلة، زرتُ فيها بلداناً عدة» أجبته، فهز رأسه كمن اكتشف أمراً، ثم أعادني إلى الحبل وألقى رأسه على الوسادة من جديد، وتابع جولته على البقية بمصباحه. ثم فجأةً، كمن تذكر أمراً كان قد نسيه، سألنا: «من منكم دعاني تلك الليلة بشوال الحنطة؟» فأجابه الساخر من فوره كما لو كان ينتظر السؤال: «أنا يا سيدي، وقد اعترفتُ لك يوم أمس عندما كنا خارج المنزل، لكن ربما لم تسمعني».

«بل سمعتك أيها الغبي، أما الآن فأريد أن أراك» قال مسلطاً عليه ضوء قلمه، ثم أردف: «هل أنت نادم؟» أجاب: «أجل، وأشعرُ بذنب شديد».

«أتقصدُ أنك تشفق علي؟» وانقض عليه بشراسةٍ وشدّ ضاغطاً على ملقطه. أجاب الساحرُ بهدوء: «بالطبع لا، انظر إلى حالنا نحن وحالك أنت. من منا عليه الإشفاق على الآخر؟».

قهقه المجنون مُرخياً يده عن الملقط: «أجل، أنا بكل تأكيد من يستحق الشفقة، لقد أحسنت الإجابة أيها الملعون» ثم ارتمى إلى الوراء مستلقياً من جديد وسأله: «فكيف وصلت من اليونان إلى هنا؟» ظننته يعيد علي سؤاله، وهممت أن أجيب، لكن الساخر فهم الأمر وأجاب: «وصلتُ بعد رحلةٍ طويلة، مررتُ فيها ببلدانٍ عدة» هز المجنون رأسه واستأنف جولةً جديدة، مسلطاً ضوء قلمه على كل واحد منا موجهاً له نفس السؤال: «كيف وصلت من اليونان إلى هنا؟» فاختار الجميعُ الإجابة نفسها بعد أن أثبتت جدواها.

خمس ليالٍ متتالية من تكرار الإجابة نفسها عن السؤال ذاته، حتى كاد البعض يُصدِّق أنّه أتى حقاً من اليونان.

في الليلة السادسة، لم يطفئ مصباح الحجرة كعادته قبل بدء جولته علينا بقلمه الكشاف، ولم يستلق على سريره تحت حبلنا، بل أحضر كرسياً وجلس عليه عند عقب السرير، مسنداً ظهره إلى الوراء، مفسحاً لكرشه التمددَ بارتياح أكبر، وراح يتأملنا طويلاً، حتى ظنناه لن يفعل شيئاً غير هذا، إلى أن تنحنح بوقار كمن يهيئ حنجرته لإلقاء خطاب، وشرع بالغناء.

لم يغنِّ هذه المرة عن الموز والقرنبيط والجزر. غنى أغنيةً ألّفها على ما يبدو خصيصاً لأجل تلك اللحظة.. تتألفُ من كلمتين اثنتين:

ستشتاقون إلي.

لا أظن أحداً منا قد اشتاق للمجنون هنري منذ أن فكنا من ملاقطه تلك الليلة، ورمانا من شباك منزله واحداً تلو الآخر باتجاهات شتى وبعزوم متفاوتة، قاصداً بذلك أن يفرقنا عن بعضنا ما استطاع.

لا أعلم ما آل إليه مصيرُ رفاقي الفرنسيين، أما أنا فقد عثر علي طفلٌ اشترى بي لوح شوكولا من دكانٍ في الحي. ومن ذلك الدكان، تنقلت بضع تنقلات في أرجاء المدينة، إلى أن انتهى بي المطاف بعد ما يقاربُ الشهر في حصالة كاتي.

جنيف – سويسرا Geneva-Switzerland |

بعد أسبوعين من إطلاق سراحي من الحصالة، وصلتُ إلى جيب رجل سويسري ركبتُ معه القطار السريع من ليون إلى جنيف في رحلةٍ استغرقت ساعتين، أمضيتهما بالتحدث إلى مفاتيح في علّاقةٍ حديدية كانت تشاركني ذلك الجيب. التحدثُ إلى غير النقود من المعادن أمرٌ شاق، فهي تتحدث اللغة البدائية للمعادن، الأمر الذي يشبه عندكم التحدث إلى طفل حديث الكلام، إذ يستعصي عليه فهمُ جلِّ كلامكم، فيما تعاونون أنتم الكبارُ الأمرّين في محاولة تخمين ما يود قوله.

كان حديثنا عن صلة المفاتيح بالأقفال، أو على الأقل هذا ما فهمته، وفهمتُ أيضاً من أحد تلك المفاتيح أنها تغار منا لجمال نقوشنا، ولقدرتنا دون سوانا من المعادن على سماع البشر وفهم كلامهم. فكرتُ بذلك المفتاح.. كان القِدَمُ بادياً عليه، لا بدّ أنه أمضى سنين طوال بصحبة ذلك الرجل، فهوُ مفتاح منزله.. ربما يعرفه منذ سكبِه، حين اشترى العاشقان المنزل، فشهد زواجهما وقدوم أول مولود، وربما رافقهما إلى مدرسته في أول يوم دراسي له، وظل شاهداً على حياة تلك العائلة وهي تنمو عاماً بعد عام أمامه إلى أن غدت أسرةً كبيرة.. في فيلم سينمائي طويل جميل.. لكنه صامت. حملتني تلك الفكرةُ إلى تأمُّل علاقتي بالإنسان، فهي علاقةٌ عابرة على الدوام، كعلاقتي بالعملات. أنا أيضاً أغار من تلك المفاتيح.. أغارُ من شراكتها مع الأقفال، الشراكة التي ذكرتني بوحدتي الأزلية برغم كل من ألتقيهم من عملات، فعلاقتي بتلك العملات مهما طالت، مصيرها إلى فراق لا لقاء بعده. تمنيتُ لو أن لي شريكاً ما.. شريكاً دائماً كهذا الذي لدى المفاتيح، يشتاقُ إلي إن أطلتُ الغياب ويضمني بلهفةٍ عند اللقاء، شريكاً أغارُ عليه من الآخرين، كما يغارُ ألنزو على حبيبته.

رافقتنا في الرحلة تلك ورقتا يورو من فئتي العشرة والعشرين. لم أحفل يوماً بوجود العملات الورقية حتى وإن كانت من اليورو، إذ لا سبيل للتواصل فيما بيننا، فهي بالنسبة إلينا مجرد أوراق.

الذي لفتني في تينك الورقتين، ما كان مدوناً على إحداهما بقلم أزرق باللغة الفرنسية:

باريس.. مدينة الحب والنور.

إنها العبارة نفسها التي سمعتُها من إحدى اليوروات الفرنسية في قصر السيد ألبرت، ثم مرةً أخرى من أحد رفاق السجن، فجعلتني متلهفاً لزيارة تلك المدينة، كي أراقص الأضواء في لياليها وأنتشي بشذا عطور الحب فيها. لكنني غادرتُ قبل أن أزورها، ودون أن أحظى بفرصة التسكع في شوارعها الشهيرة والالتقاءِ ببرج إيفل، أشهر كائن معدني في هذه الدنيا.. ولا حظيتُ برؤية «ميدالية إيروس» في متحف اللوفر، تلك التحفة الذهبية الفريدة التي أبدعها أجدادي الإغريق قبل آلاف السنين، والتي كان قد وصف لي مدى جمالها صديقي الدراخما القديم في درج المكتبة العريقة في أثينا.

باريس.. مدينة الحب والنور.

تلك العبارة التي كُتبت بخطٍّ رديءٍ على العملة الورقية، لم تذكرني سوى بحسرتي:

حسرة أن أكون ولو لمرة واحدة، حيث أريد أن أكون.

سارع السويسري عند وصوله إلى التخلص مني، لكوني بلا نفع في بلاده، فدفعني بقشيشاً لسائق التاكسي الذي أقله من محطة القطار إلى المنزل، والذي احتفظ بي في جيبٍ صغير بمحفظته.

بعد أيامٍ قليلة، وجدتُ نفسي لأول مرةٍ في حياتي، وجهاً لوجه مع بومةٍ حقيقية. كان ذلك عندما اصطحب السائق أسرته إلى حديقة الحيوانات في عطلة نهاية الأسبوع.

مررنا بالكثير من الحيوانات داخل الحديقة، إلى أن صاح أحدُ أبناء السائق منادياً: «تعال انظر يا أبي، إنها بومةٌ كبيرة» فسار بيَ الأبُ نحوها، تسابقه إليها خفقاتُ قلبي.

حين رأيتها، شعرتُ بأني أنظرُ إلى نفسي.. أنظرُ عميقاً إلى داخلي.. أحسستُ أني رأيتُ قلبي.

لم أعد أرى سوى عينيها بعد أن تركناها وراءنا وأكملنا جولتنا، بل وبعد أن غادرنا الحديقة. ثلاثة أيامٍ متتالية، لم أعد أرى فيها سوى تينك العينين، ولم أعد أنتبه لأي شيء من كل ما حولي.

بين أضواء الألعاب النارية فوق بحيرة جنيف، تلاشت عينا تلك البومة من خيالي واستعدتُ مداركي. كان ذلك ليلة العاشر من أغسطس، يبدو أن جنيف كانت مدينة المواعيد الأولى بالنسبة إلي، ففيها دخلتُ لأول مرةٍ حديقة حيوانات، والتقيتُ فيها بومةً لأول مرة، وها أنا أحضر لأول مرةٍ مهرجان ألعابٍ نارية.. ولأول مرةٍ بعد بضعة أيام.. سيدوسني أحدهمُ بحذائه.

أصرت راكبةٌ على استعادة بقية الحساب من ذلك السائق حين أخبرها بأنه لا يحملُ فكة، فاضطر إلى دفعي إليها بدل العملة السويسرية، لتوقعني بعد دقائق في طابور حجز التذاكر على باب السينما، حيث داسني الفتى الواقفُ خلفها، قبل أن يتظاهر بعقد رباط حذائه لالتقاطي.

لم تكن المرةَ الأولى التي أدخل فيها صالة سينما وأشاهدُ فيلماً، لكنها كانت المرة الأولى التي يشدني فيها عنوان فيلم بهذا الشكل. كان عنوانه «آيرون مان» وهو عن مخترع أمريكي يصمم بدلةً معدنية مزودة بطاقةٍ مبتكرة، تمنحه قدرات خارقة في الطيران والقتال الحربي عند ارتدائها. أعجبتني الفكرة.. فكرةُ أن عليك أن تكون معدنياً، لتصير بطلاً خارقاً.

أنا كائنٌ معدني! فما الذي ينقصني لأكون بطلاً خارقاً؟.. حدّثتُ نفسي بحماسٍ كبير بينما أشاهد الرجل الحديدي يخوضُ معارك ضارية ضد أعدائه بمفرده فينتصرُ عليهم. لم أتمنَ هذا للانتصار على اعدائي، إذ ليس لي أعداءٌ أصلاً، بل تمنيتُه لأحقق الحلم الذي يستوجب قوةً خارقة ليست لديّ لتحقيقه: أن أكون حيث أشاء.

لم أفهم سر اهتمام الفتى بامتلاكي لدرجةٍ جعلته يسرقني من السيدة بتلك الطريقة، إلا عندما أعطاني لشقيقته الصغيرة التي تمارس هواية جمع العملات، أبدت سعادتها بهديته ثم أخبرته بأن لديها في مجموعتها يورو يونانياً، وتمنت عليه أن يبدلني من محل صرافةٍ باليورو القبرصي الذي لم تكن بعد قد تمكنت من الحصول عليه، بسبب حداثة انضمامه لمنظومة اليورو.

لم يتوان الفتى عن تلبية أمنية أخته، فسارع في اليوم التالي إلى محل صرافة، وأبدلني بالقبرصي.

أن تكون العملةُ في درج محل صرافة، يشبهُ أن يكون الإنسانُ في مدرج كرة قدم، تجري فيه المباراة النهائية لكأس العالم!

كانت الأجواءُ صاخبةً بشكل هستيري، من ضحكٍ هنا وصراخٍ هناك، وأحاديث جانبية في كل الأرجاء بمختلف اللغات، وغناء جماعيّ ومنفرد، وهتافاتٍ ومشاجرات، ونكاتٍ وألغازٍ وحكايات، وآهاتٍ وتنهدات.

تلك الأجواء الصاخبة ذكرتني بعلبة العملات الأجنبية في منزل التركي، العلبة التي تمنيت آنذاك الانضمامَ إليها، فشعرتُ عند دخول ذلك الدرج بسعادةٍ لها طعمٌ غريب.. طعم التذوق بعد طول اشتهاء.

كان في ذلك الدرج الكبير المخصص للعملات المعدنية المئاتُ من القطع، موزعة على حاويات بحسب انتماءاتها، وكانت الحاوية المخصصة للقطع السويسرية هي الأكبر بينها جميعاً، أما أصغرها فكانت تحتوي على عملاتٍ يندر طلبها أو تبديلها كالعربية والآسيوية. وُضعتُ في حاويةٍ مخصصة لليورو، متوسطة الحجم، التقيتُ فيها بكل أجناس اليورو بمختلف فئاتها وانتماءاتها، الأمر الذي لم يحدث لي قبلاً. كما التقيتُ من جديد، بعد طول فراق واشتياق، بيوروات يونانية احتفت بقدومي احتفائي بلقائها، وبادرت إحداها بسؤالي عن أحوال اليونان ظناً منها بأني قدمت من هناك مباشرةً، ثم تنهدَت وعادت إلى صمتها حين علمَت ألا جديدَ عن البلاد لدي.

كانت العملات في حاوية اليورو متحزبة بحسب بلدانها، وكل حزب كان منغلقاً على نفسه، بل ويضمر العداء أحياناً لغيره من الأحزاب.

حاولتُ في أيامي الأولى أن أبقى على مسافةٍ واحدةٍ من كل العملات كما اعتدت طوال السنين الماضية، لكن الأجواء المشحونة كانت أقوى من كل النوايا الطيبة.

لم أستطع – رغم انضوائي في المعسكر اليوناني – أن أقاوم اختلاس نظرة إعجابٍ إلى بداعة النقش الفرعوني في العملة المصرية، وأستراق السمع بانتشاءٍ مستتر إلى أغاني الروك والراب والكونتري في حفلات الحاوية الأمريكية، وقصائد جوته في الأمسيات الشعرية التي كانت تقيمها اليوروات الألمانية، والابتسام سراً ليورو إيطالي كلما تذكرتُ عند رؤيته عشقي لروما.

في إحدى احتفالات الحاوية الأمريكية بمناسبةٍ وطنية، صاح دولارٌ نُقش على وجهه تمثالُ الحرية: «نحن العملة الأقوى.. نحن أسيادُ عالم العملات» فاحتجّت بعض العملات التي لها قيمة في سوق الأموال تفوق قيمته، واحتدَّ الجدالُ وتعالت الأصوات، وبدأ تراشقُ السباب بين الحاويات، واندلعت الحرب.

كان هذا مساء يوم سبتٍ مع ابتداء عطلة نهاية الأسبوع، فاستمرت المعاركُ طيلة اليوم التالي، حتى صبيحة الإثنين، عندما فُتِح الدرج وسُحبت منه بعضُ القطع السويسرية ثم أُغلق من جديد، فانغلقت معه فوهة بركان المعارك، وساد الهدوءُ فجأةً كلَّ الحاويات. صمتُّ كما صمتَ الجميع، تلفتُّ حولي باندهاش غيرَ مدرك لما حدث، وما الذي أنهى القتال فجأةً وهدّأ النفوس. وبعد أن تأكدتُ ألا نية لدى أحد بمواصلة القتال سألتُ خمسين سنتاً يوناني كان بجانبي عن سر ما حدث، فقال إنهم اعتادوا نبذ أي خلافٍ يكون قائماً إذا انفتح الدرج. وحين سألته عن سبب هذه العادة قال إنها عادةٌ قديمة وجدوا عليها من سبقوهم إلى الدرج من العملات، وإنه لا يعلم ما أصلها أو سرها. لم ترو إجابته فضولي، لكنني لم أجرؤ حينها على سؤال غيره، لأن الجميع كان لا يزال غاضباً وإن توقفت الحرب.

في ظهيرة يومٍ من أيام سبتمبر، دخلت علينا مجموعةٌ من القطع الأمريكية، حاملةً معها أنباءً من بلادها جعلت جميع من في الدرج في حالةٍ من الذهول والجزع: أزمةٌ ماليةٌ كبرى تهدد بانهيار الاقتصاد الأمريكي!

لأول مرةٍ منذ دخولي ذلك الدرج، بل ربما لأول مرة في تاريخه توحدت العملات جميعها وأصبحت على قلب معدنٍ واحد، لا شيء يشغلها سوى مُصاب العملات الأمريكية، ولا همّ لديها سوى مواساتها، والتخفيف من وطأة الصدمة عليها.

بدأت الإشاعات تتوالى وتنتشر يوماً بعد يوم حول تلك الأزمة وأسبابها وتداعياتها، وكلما وصلت الدرجَ قطعٌ نقدية جديدة سارعنا إلى سؤالها عن آخر الأخبار. صرنا ننصت باهتمام كبير

إلى كل حديثٍ يدور بين صاحب محل الصرافة وزبائنه، لعلهم يتطرقون للأمر. إلى أن سمعنا رجلاً يخبره ذات يوم بأن الأزمة تتفاقم، وأن العالم بأسره في طريقه نحو انهيار اقتصادي عظيم.

بعد أن هدأت نوبة الهلع التي اجتاحت الجميع، ساد الوجومُ أرجاء الدرج كليلٍ لا نهار بعده.

«إنها نهايةُ العالم» قال هنديٌّ قديم نُقش على وجهه تمثالُ أسُود أشوكا، قالها ولم يزد حرفاً، لكن عبارته تلك التي قالها بصوتٍ أجش يشبهُ انجرارَ جنزيرٍ حديديٍّ ثقيلٍ على الإسفلت، ظل صداها يتردد بين جدران صمتنا كارتداد زلزالٍ عظيم.

أيعني نهايةَ العالم أجمع أم عالم العملات؟ تساءلتُ في نفسي الخائفة.. أياً كان ما يعنيه ففيه نهايتُنا. بدأ الرعب يتملكني.. لم يخطر ببالي يوماً أن ينتهي العالم، أو أن تصير العملاتُ نسياً منسياً. إنه كابوسٌ ثقيل، جثم على قلبي نافثاً فيه صوراً وخيالاتٍ مرعبة، سرت برودتها في عروق معدني.

طال الصمتُ كثيراً، وتمادت أشباحُ الرعب في تكاثرها، فلم أعد أرى حولي سواها.. تحوم بأذنابها الطويلة السوداء كالأسواط، تجلدني.. تجلدُ صدر بومتي.. رأيتُ ريشها يتطايرُ من وجهي، فصرختُ كالممسوس.. وغبتُ عن الوعي.

برلين – ألمانياBerlin-Germany |

استيقظتُ على صوتٍ بدا لي مألوفاً: «ها قد استعدتَ وعيك! لقد أطلتَ حتى ظننتك لن تفعل» لم أستطع تبيّنُ ملامحه وسط الغبش إلا بعد لحظات، إنه الخمسون سنتاً اليوناني الذي كان بجانبي في الدرج، ورأيت حولي أيضاً قطعاً نقديةً غيره لم أحاول تبيّن من تكون. سألته أين نحن، فأخبرني بأننا في جيب سائح عربي على متن طائرة متجهة إلى برلين.

«جيب وطائرة؟ ألم نكن في الدرج؟» سألته متمنياً أن يقول لا.. لكنه قال بلى، فارتعدت.

كان برفقتنا ربعُ درهمٍ عربيّ، نُقش على وجهه غزالٌ رشيق، أمضينا ما تبقى من وقت الرحلة في الاستماع إلى حديثه عن بلاده، وعن عادات الناس هناك. كان العربيَّ الوحيد بيننا في الجيب، أما البقية فجميعهم ممن كانوا معي في درج محل الصرافة.

بينما كان الرجل العربي في مطار برلين واقفاً مع صديقيه أمام حزام الأمتعة بانتظار وصول حقائبهم، قال يورو ألمانيٌّ قديم ممن كانوا يلقون قصائد جوته في الأمسيات الشعرية: إنها يدُ الصراف أيها اليوناني».

«ما بها يدُ الصراف؟» سألتهُ متحسّساً عمقَ نبرته الخاشعة، فأجاب: «أما سألت ذلك اليوم عن سر توقفنا عن الاقتتال وانتهاء الحرب؟ إنها يدُ الصراف.. لا تنفك تذكرنا بأن لا أحد في ذلك الدرج باقٍ».

مع بداية الخريف، كنتُ قد وصلتُ إلى محفظة طالبةٍ ألمانية تدرسُ الطب في جامعة هومبولدت، فاصطحبتني معها إلى الجامعة. أحببتُ أجواء الدراسة كثيراً، أمتعني الجلوسُ في المدرجات لسماع المحاضرات، وراقني التجول في أروقة الجامعة بين طلابٍ وطالبات تجري في عروقهم تلك الدماءُ الفتيّة، وينبض في قلوبهم حبُّ الحياة.

في المشرحة، رأيتُ قلب الإنسان لأول مرة. كانت الجثة لرجل في الأربعين من عمره بحسب ما ذكر البروفسور الذي كان يشق بمبضعه صدر الرجل بسعادة من يقطع كعكة عيد ميلاده.

«يا لقسوتهم!» قال اليورو الوحيد الذي كان معي في محفظة الفتاة، ثم أجاب نفسه: «ليست قسوةً! إنهم يتعلمون».

«لكن ألا ترى سعادته وهو يشق صدر الرجل المسكين؟» أجاب نفسه من جديد.

«مسكين؟! إنه ميت. أعليه أن يبكي بينما يقوم بعمله لترضى عنه؟» قال مجادلاً نفسه.

«لا، لكن عليه ألا يبتسم هكذا» رد على نفسه ممتعضاً.

«لا أظنه يبتسم سعادةً بالأمر، وإنما ليبعث في قلوب طلابه الطمأنينة» قال منهياً ذاك الجدال.

كان ذلك اليورو الألماني، قد انضم إلي صباح ذلك اليوم في طريق الفتاة إلى الجامعة، ولم نكن بعد قد تحدثنا منذ أن ألقى علي التحية مرتين عند وصوله. لم أستغرب الأمر حينها، إذ ظننته أعاد تحيتي ظناً منه بأني لم أسمع الأولى. لكن بعد ذلك الحوار الذي دار بينه وبين نفسه في المشرحة، أدركت أن ثمة خللاً ما في شخصيته. أيكون مجنوناً؟ ساءلتُ نفسي مستغرباً فكرة أن تُصاب عملةٌ بالجنون.

بعد خروجنا من المشرحة، جلست الفتاة مع بعض زملائها في حديقة الجامعة.

«أحب هذه الصفرة التي تكتسي بها الأشجارُ في الخريف، فهي تمنحني شعوراً بالدفء الجميل» قلتُ للألماني محاولاً التحقق من أمره، فقال: «أجل صدقت، لهذا الفصل لونٌ دافئٌ قريبٌ

إلى النفس» ثم قال: «إنه أكثرُ الفصول كآبةً، وهذه الصفرة التي تتغزلان بها ألا تريان كم تشبه الصدأ؟».

إنه مجنون حقاً.. استنتجت، ولذتُ إلى الصمت متظاهراً بانشغالي باستكشاف ما حول المحفظة من أغراض في حقيبة الفتاة.

كنت أتثاءب من الملل في آخر محاضرات ذلك اليوم عندما سألني بهدوءٍ غير المجانين: «ما مدى تأثر اليونان بالأزمة المالية؟».

ترددتُ قبل أن أجيب، إذ لم أعلم أعليّ أن أجيبه بجدية تليق بالعقلاء، أم كما يجيب الكبارُ طفلاً عن سؤال أكبر من سنه؟ وقبل أن أرسو على اختيار الطريقة المثلى قال: «لم تتأثر بعد بشكل كبير، شأنها في هذا شأن ألمانيا وبقية دول الاتحاد».

لم أستطع حينها تمالك نفسي فانفجرتُ ضاحكاً.

«ما الذي يضحكك؟ أتسخر منا؟».

فقلتُ دون أن أستطيع التوقف عن الضحك: «منكم؟».

«أجل، منا».

«من أنتم؟ لا أرى سواك هنا!» أجبتُ بسخرية، وهنا سمعتُ ضحكتين مختلفتين تخرجان منه في آنٍ معاً، وقال: «نحن اثنان، ظننتك تدرك الأمر!».

«أي أمر؟!» سألت ممعناً نظري إليه، علّي أجد قطعةً ثانية مختبئةً وراءه.

«نحن يورو ثنائي.. قطعتان مدموجتان في قطعةٍ واحدة» أجاب مبتسماً.

«وكيف هذا؟» سألتُ مستغرباً، فأخبراني بأنهما نتاجُ عملية إعادة تدوير للعملات، يقوم بها البنك المركزي بين الحين والآخر لتجديد اليوروات القديمة، فاندمجا في قطعةٍ واحدة بعد أن كانا قبل إعادة التدوير قطعتين منفصلتين.

لم أكن قد سمعتُ بأمر إعادة التدوير تلك من قبل، وهو أمرٌ أخافني بقدر ما فاجأني، إذ خشيتُ أن أخضع مستقبلاً لهذه العملية، التي أخبراني بأنها تتم بصهر العملة ليُعادَ سكها من جديد. لم يخفني الصهرُ وحده.. بل أفزعتني أكثر فكرةُ أن يشاركني أحدٌ سواي هذا الجسد.. فما بهذا الشكل تمنيتُ أن يكون لي رفيقٌ دائم.

مضى الخريفُ بصفرته سريعاً، وجاء الشتاءُ جالباً معه كآبةً غريبة لم أشهد مثلها في أي شتاءٍ سابق. كنتُ حينها في درجٍ حديديٍّ كبير في ورشة حدادة على أطراف برلين. لم يكن درجاً مخصصاً للنقود المعدنية وحدها، بل كان ممتلئاً بمعدات وبراغٍ وخردوات كثير، وُضعنا بجانبها في علبة كرتونية صغيرة منزوعة السقف.

الاستماعُ اليومي لأحاديث تلك المعدّات والخردوات بلغتها البدائية العصيّة على الفهم، بينما تصدّعُ مسامعنا أصواتُ طرق الحديد في الورشة، مصحوبةً بصفير الرياح في الخارج كعويل الأشباح، وظلمة السماء طوال النهار، والبرد القارس، ورائحة الصدأ الثقيلة المنبعثة من جدران الدرج.. كلُّ تلك العناصر اجتمعت معاً، لتجعل من ذلك الدرج الحديدي جحيماً لا يُطاق.

كان كل من معي في تلك العلبة الكرتونية مكتئباً مثلي، غارقاً في غياهب صمته، أما أنا فغرقت في تأملاتي. تأملتُ ما يصنعُ الإنسانُ بالمعادن.. كيف يقررُ شكلها.. ويختار لها وظيفتها. تخيلتُ لو أن هذا الحداد فكّر بصهري وإعادة تدويري إلى شيءٍ آخر غير النقود، فماذا عساه سيختار لي أن أكون؟ فكرتُ بتلك الأبواب الحديدية التي كان يصنعها عابساً بوجهها، متخيلاً ما

كانت عليه من خلقةٍ قبل أن تُصهر ويُعاد تشكيلها بهيئاتها الجديدة، متسائلاً.. كم من الأبواب دُمج في كل باب.. وكم صوتاً يردُّ على اليد التي تطرقه.

امتدّت يدُ الحدّاد إليّ آخر الشتاء وانتشلتني من العلبة مع يورو آخر كان بجانبي.. ومن خردواتٍ وأبواب حديدية، إلى آلاتٍ موسيقيةٍ وستائر مخملية.. من طرقٍ على الحديد، إلى عزفٍ على الأوتار.. من ورشة حدادة، إلى دار أوبرا.

هكذا كانت النقلةُ بلا مقدمات، فالرجل الذي أخذني من الحدّاد ألقاني في صندوق تبرعاتٍ كبير وُضع داخل مسرح دار الأوبرا في برلين، فأمضيت هناك شهر مارس بأكمله، لأحظى بمتعة حضور ثلاثة عروض مختلفة في كل أسبوع، بالإضافة إلى المتعة الأكبر: حضور بروفات تلك العروض.

منذ أن بدأت بروفات ثاني العروض، وجدنا أنفسنا داخل صندوق التبرعات منخرطين في التدرب مع المغنين والممثلين على خشبة المسرح، فتقاسمنا الأدوار فيما بيننا بشكل جدي كما لو أنها عروضنا نحن، وكانت كلما انضمت إلينا تبرعاتٌ جديدة أشركناها معنا في التمرينات على الفور.

ما زلت أذكرُ أولَ عرضٍ أديناه، عندما امتلأت مقاعدُ الحضور، وأطفئت الأضواء، وبدأ العزفُ خفيفاً وهادئاً، ثم تصاعدَ رويداً رويداً لتحين لحظةُ الغناء، فصدحنا بصوتٍ واحدٍ رنان كان له وقعٌ في قلبي يستحيل وصفه.. كما يستحيلُ نسيانُه.

في إحدى الأمسيات التالية، كان العرضُ عبارةً عن مسرحية أوبرالية، فيها الكثير من المشاهد التمثيلية والحوارات الغنائية التي وجدنا صعوبةً بالغة في التدرب عليها، فاقترح البعض أن نجرب تأدية دور الآلات الموسيقية هذه المرة، وهكذا قسمنا أنفسنا إلى مجموعات، تولّت كلٌّ منها تقليد آلةٍ من الآلات، فكنتُ أنا في مجموعة الكمان.

لم يكن تقليد الآلات الموسيقية أمراً صعباً وحسب، بل كان مضحكاً جداً. لا أذكر أني ضحكتُ من قبل في حياتي بأسرها بقدر ما ضحكت في تلك البروفة، فكان كلما حان دورُ مجموعةٍ ما وتبدأ بتقليد آلتها، تنفجرُ ضاحكةً من فورها لتجلجل معها ضحكاتُ بقية المجموعات.

اكتفينا في ذلك العرض أخيراً بدور الجمهور.. وتركنا أمرَ الغناء والعزف والتمثيل فيه، لأصحابه الحقيقيين.

في نهاية شهر مارس، وبعد حوالي اثني عشر عرضاً، كان صندوق التبرعات قد امتلأ، فقدمته إدارة المسرح إلى الجهة الخيرية المعنية، التي بدلت القطع المعدنية بفئات ورقية كبيرة في أحد المصارف الصغيرة، لأودّع هناك رفاقَ المسرح منطلقاً في تنقلاتٍ جديدة في أرجاء برلين، إلى أن وجدتُ نفسي في شهر أكتوبر أمام عدسة تصوير كبيرة كعين بومةٍ تحدق بي، في غرفةٍ معتمة في هامبورغ.

هامبورج – ألمانياHamburg-Germany |

«لك وجهٌ جذابٌ في التصوير، لكن هذا غيرُ كافٍ يا صديقي، وإلا لوضعنا صورةَ «بودو» على الغلاف بدلاً من صورتك» قال لي بعد ربع ساعةٍ من دخوله عليّ في الغرفة المعتمة التي لم أستطع حينها أن أرى فيها سوى لمعان عدسة تصوير كبيرة وضوء كشاف صغير مسلط عليّ، ثم قال مخاطباً غيري: «حسناً، أشعل الضوء يا بودو» فرأيتُ حينها المصور الذي كان يحدثني، ووراءه الشاب الذي كان قد وضعني في تلك الغرفة.

«هل أعجبتك إضاءتي؟» قال بودو للمصور.

«أجل إنها جيدة، إنك تتعلم بشكل سريع. أخبرني، أين عثرت عليه؟» قال المصور وهو لا يزال يحدق بي خلال العدسة، فأخبره بودو بأنه عثر عليّ بعد بحثٍ ساعاتٍ في السوق.

لم أكن بعد قد استوعبتُ ما يحدث: مصورٌ خمسيني يبدو محترفا، يُجري لي جلسة تصوير بعد أن كلف مساعدَه الشاب بالبحث عني وإحضاري!

ما الذي يجعلهما مهتمين بتصويري أنا دون غيري من العملات، وما الذي عناه المصور حين قال بأن جاذبيتي غيرُ كافية لوضع صورتي على الغلاف؟ وعن أي غلاف يتحدث؟

نهض المصور من وراء العدسة وقال لمساعده بينما يخرج: «الإضاءة الحزينة غيرُ كافية يا بودو، نحتاج إلى فكرة. خذه معك، ولا تعد به غداً إلا بفكرةٍ عظيمة».

وقف بودو على الرصيف المقابل، لالتقاط سيارة أجرة، فصار بوسعي قراءة الاسم المثبّت أعلى ذلك المبنى الذي خرجنا منه لتوّنا: دير شبيغل!

في شقته، أخرج بودو من خزانةٍ في غرفته ما يفوق العشرين نسخة من المجلة، رصها فوق بعضها على الأرض، ثم وضعني فوقها، وراح يدور حولي بأناةٍ كالمحقق الذي يدور حول متهم في جلسة استجواب: «فكر يا بودو.. فكرة عظيمة.. فكر يا بودو.. فكر» ثم جثا على ركبتيه أمام برجه الورقي، وراح يحركني فوق الغلاف، فيضعني مرةً في منتصفه، ومرةً في إحدى زواياه. «عليك أن تساعدني أيها اليوناني، فكر معي هيا! سأخسر وظيفتي الجديدة بسببك، تباً لك». وراح يبدل المجلة العلوية كل قليل بأخرى من التي تحتها، ويتأملني فوق كل غلافٍ جديد. «إنك صغيرٌ جداً! ربما علينا أن نصورك مرصوصاً فوق مجموعة كبيرة من اليوروات على هيئة برج طويل.. ممم.. لكن، لا.. فالأبراج توحي بالازدهار، الأمر الذي يتعارض مع مأساتك».

مأساتي؟! عن أي مأساةٍ يتحدث؟.. قلت لنفسي، وقد اعتراني الخوف.

وضعني في جيبه مساءً، وخرج لتناول العشاء في مطعم صغير، مع صديقته ذات الشعر الكستنائي والعينين الرماديتين اللتين لم أر مثيلاً لجمال لونهما. بعد انتهائهما من تناول العشاء، كان يدقني بطرف كأس المشروب أمامه، عندما سحبتني صديقته من يده وسألته بينما تقلّبني بيدها وتتأملني بتينك العينين الأخاذتين: «أليس يورو يونانياً؟» فأجابها: «بلى يوناني، سنصوره غداً للمجلة».

«ما رأيك بأن تصورني بجانبه؟ ألستُ أجملَ منه؟» قالت تمازحه ممسكةً بي بين الإبهام والسبابة، وقربتني من وجهها باسمةً كمن تأخذ صورة.

نظر بودو باندهاش إلى يدها التي تمسك بي، وصاح كالمجنون: «أجل! أجل! هذه فكرةٌ عظيمة!» ثم دار حول الطاولة وأنهضَ الفتاة وعانقها ضاحكاً وهو يهتف: «أحبك، أحبكِ جداً!.. إنها فكرةٌ عظيمة حقاً!».

بعد أربعة أيام، على غلاف مجلة دير شبيغل:

يدُ امرأةٍ عجوز ممسكةٌ بي بالسبابة والإبهام، جُعلت على شكل شجرة، كُتب بجانبها بالخط العريض:

«هل تسقط البومةُ عن الشجرة؟».

هلعي من إمكانية اندثاري، أفسد فرحتي بنجوميتي الطارئة تلك، فقد كان العدد الذي تصدرتُ صورةَ غلافه، يناقش في ملفٍّ خاص احتمالات انهيار الاقتصاد اليوناني، وانسحابِ أثينا من منظومة اليورو.

كيف وصلت الأمورُ إلى هنا بهذه السرعة؟.. كيف انشغلتُ عن متابعة أخبار الأزمة كي أفاجأ هكذا بما آل إليه اقتصادُ اليونان من تدهور كبير؟.. أيُعقل أن نهايتي قد اقتربت؟.. هل سنُسحب عما قريب من السوق، لنُصهر ويُعادَ تدويرُنا إلى أشياء بلا قيمة تتكلم اللغة البدائية، وتعيشُ بين الناس في فيلمٍ صامت؟.. أتكون نهاية اليورو اليوناني بدايةً لتحقق نبوءة الهندي؟.. أتكون هذه بداية انتهاء العالم؟

بعد أسبوع من صدور ذلك العدد، وبينما كنت في جيب بودو الذي قرر الاحتفاظ بي بعد النجاح الكبير الذي لاقته فكرته لصورة الغلاف، سمعتُ خبيراً اقتصادياً في زيارةٍ إلى المجلة، يقول بأنها أزمةٌ عابرة، وبأن دول الاتحاد لن تقبل بانهيار اقتصاد اليونان، وقد بدأت بالفعل بتطبيق خطة إنقاذ طارئة، لانتشال اليونان من محنته.



هذا الغلاف تخيُّلي ولم يصدر عن ديرشبيغل. قام بتصميمه المؤلف تعبيراً عمّا ورد في روايته.
* اليد المستخدمة في لوحة الغلاف هي يد السيدة الفلسطينية الفاضلة / جميلة زيتون.

أراحني كلامُ الخبير، وأعاد إليّ الأملَ من جديد، ومع توالي الأنباء المؤكّدة لما قال، اطمأنّ قلبي واستكانت الروح، واستعدتُ الشعورَ بالأمان.

كنت قد سمعتُ غير مرة عن شبكات التواصل الاجتماعي، ورأيت سابقاً بعضاً ممن كنتُ بحوزتهم يستخدمونها، لكني لم أتخيل يوماً، أن تُنشأ لي صفحةُ معجبين في موقع الـ «فيسبوك».

بودو الذي فرح كثيراً بنجاح غلافه، اقترحت عليه صديقته إنشاء صفحة معجبين خاصةً بي أسماها «بومة الغلاف»، وراح يلتقط لي صوراً جديدة كل يوم وينشرها في الصفحة، بعد أن يُجري عليها لمساته الفنية على الـ «فوتوشوب».. فوضعني مرةً في مرمى بندقية صياد، ومرةً بجانب نفسي بعد أن أضفى على وجه البومة في الصورة المكررة ملامح الأنثى، ووضع بين القطعتين قلب حب، وأوقفنا على غصن، ومرةً ألبسني رداء المنتخب اليوناني لكرة القدم، ووضعني في ملعب، ومرةً جعلني مطلاً من نافذة صاروخ يغادر كوكب الأرض، وغيرها من عشرات الأفكار التي لاقت استحساناً كبيراً وأسهمت في ازدياد المعجبين بالصفحة يوماً بعد يوم، إلى أن غدوا بعشرات الآلاف. حتى أن المجلة أعدّت تحقيقاً مصوراً، يتحدث عن شعبية الصفحة، وُضِعَت فيه أكثر صورها شهرةً ورواجاً، ونُشِرَ التحقيق بعنوان: «بومة الغلاف.. نجمة اللقطات الطريفة».

كان آخر عهدي ببودو حين ابتعثته المجلة لتغطية مؤتمر في أمستردام، فاصطحبني معه كعادته، ووقعتُ منه هناك دون أن يشعر، بعد جلسة تصوير أجراها لي أمام طاحونة هواء عملاقة.

لا شك بأنه حزن كثيراً حين اكتشف الأمر، وربما يكون قد نشر صورتي أمام طاحونة الهواء على صفحتي في الفيسبوك، وكتَب عليها:

ذهب مع الريح..

أمستردام – هولندا Amsterdam-Holland |

بين الأعشاب الطويلة المكتظةِ مثل غابة، حيث أوقعني بودو، عشتُ عشرين يوماً ظننتها ستكون أياماً من العزلة الموحشة لحظةَ وقوعي، فإذا بي في قريةٍ مأهولةٍ بالأقزام المسلية.

عشرون يوماً من الترفيه، أمضيتها متنقلاً بين تسليةٍ وأخرى، فتبهجني مشاهدة الدعسوقة الصغيرة وهي تتسلق ساق زهرةٍ لتغفو بوداعةٍ على إحدى أوراقها، وأشهق ضاحكاً كلما وثب العنكبوتُ الأصفرُ القفاز من فوقي، وأبتسمُ مستسلماً لدغدغتها الخفيفة كلما مرت الدودة كثيفة الشعر بجانبي حاكةً شعرها بحوافي، وأصرخ متقززاً إذا مشى الحلزون على وجهي، ويرعشني طنينُ النحل، تسحرني نقوشُ الفراشات الجميلة، تبهرني رشاقةُ اليعسوب.. وإذا مرّت جيوشُ النمل، أشعرتني بالتوقد والنشاط.

عشرون يوماً ممتعاً بلا نقودٍ أو بشر، أمضيتها حتى أتى كجيش نملٍ رتلُ طلابٍ صغار، في رحلةٍ كشفية، فامتدت إليّ يدُ مستكشفٍ صغير كان يحبو خلف خنفساء سوداء، ووضعني في بطرمانه البلاستيكي مع تلك الخنفساء، وما استطاع جمعه من حشرات.

كان طفلاً في الصف الخامس اسمه «توم»، كان سميناً شديد البياض كثير النمش. عندما عاد بنا إلى منزله أبقانا لليوم التالي في البطرمان، ريثما هيّأ حاوياتٍ بلاستيكية اقتصها من قواعد قناني المياه وصفّها فوق الطاولة، ثم وضع كل حشرة في حاوية لوحدها، ليكتشف عند انتهائه أنه صنع حاويةً زائدة عن عدد حشراته، فأخرجني من البطرمان بعد أن حك رأسه مفكراً، ووضعني في الحاوية الأخيرة سعيداً بفكرته.

مستعيناً بكتيّبٍ مُصوَّر كان لديه، استطاع توم التعرفَ على أسماءِ حشراته، فوضع ملصقاً على كل حاوية بعد أن كتب عليه اسم الحشرة التي بداخلها. وحين جاء دوري، تفحّصني ملياً تحت عدسته المكبّرة، ثم بابتهاج، وضع ملصقاً على حاويتي كتب عليه: العنكبوت الحديدي.

في اليوم التالي لم يبق غيري على الطاولة في حجرة توم، إذ قدّم حشراته للمدرسة بعد أن ساعدته والدته بوضع الحاويات في صندوقٍ مناسب، أضحكها كثيراً أمرُ حاويتي والاسمُ الذي اختاره لي. كانت والدته سمينةً بيضاء كثيرة النمش مثله، بل كانت نسخةً نسائيةً كبيرة عن ابنها، وكانت ظريفةً كثيرة الضحك مثله أيضاً.

بعد يومين من منحي ذلك الاسم صرتُ عنكبوتاً حديدياً حقاً، إذ صنعت لي الأم وابنها ثمانية أرجل طويلة من الأسلاك المعدنية، ثبتاها على حوافّي بإحكام، وألصقا على وجهي العلوي كرتين صغيرتين من الورق عليهما رسمُ عينين. «لم تخطر هذه الفكرة ببال بودو» قلت لنفسي معجباً بهيئتي الجديدة، واسمي الجديد الذي ذكرني بالرجل الحديدي الذي تمنيتُ أن أكونه في ذلك الفيلم، كما سعدتُ بصحبة الطفل الذي ذكرني بأيامي الجميلة مع كوستا. لكن توم لم يتعلق بي كما فعل كوستا، فمع سقوط إحدى عينيّ وثلاثةٍ من أرجلي، سارع إلى التخلص مني بوضعي في صندوق ألعابٍ قديمة قدّموه لدار أيتام، لتنزع عني الموظفة هناك – بينما كانت تتفقد محتويات الصندوق – الأرجلَ المتبقية والعين، فعدت يورو من جديد.

من تلك الموظفة، إلى عامل النظافة في دار الأيتام، ثم من درجٍ بعد درج وجيبٍ بعد جيب، إلى أن وصلتُ إلى درج دكان الزهور في سوق بلومن.

بالإضافة إلى اليورو الهولندي الخبير بالزهور الذي سبق وأن حدثتك عنه، كان في ذلك الدرج عددٌ غفير من اليوروات كحالِ أي درج من أدراج الدكاكين في دول الاتحاد، غير أني وجدتُ فيه

أيضاً يناً يابانياً، كان قد أُعطيَ بالخطأ لصاحب الدكان منذ سنين، فظلّ حبيسَ دُرجه. أخبرني بحكايته بعد أن أفلحتُ في إخراجه عن صمته، ثم قال خاتماً حديثه قبل أن يعودَ إلى شرودهِ الذي بدا أزلياً: «الزهور جميلةٌ أجل، ولا أجمل من أن تكونَ في مكان تحيطُك الزهورُ فيه من كل صوب.. لكنه أمرٌ إذا طال، ستشعر برغبةٍ غريبةٍ بالتحرر منه، سيبدأ شوقك إلى العاديّ بالزحف إلى قلبك، شوقك إلى الروائح التي لا تعطل فيك بقية الحواس إن شممتها، شوقك إلى الرمادي والبني والأسود وغير المبهج من ألوان، حتى إذا ما استوطنت وتعاظمت هذه الأشواقُ فيك، تحوّلت إلى احتياجٍ لحوح.. يرهق القلب والروح» كان ذلك الإرهاقُ بائناً في صوته المبحوح، وقد تسلل الصدأ إلى وجهه الذي غاب نقشُه تحت طيّات الغبار. أشفقتُ عليه كثيراً وحزنت لحاله، وتمنيتُ لو بوسعي أن أجد حيلةً ما لتحريره من ذلك السجن، لكن كيف؟ وأنا لا أملك الحيلة لنفسي بالخروج.

على أية حال، لم أكن بعد قد سئمتُ شيئاً من تلك الجنة العائمة لأتمنى الخروج منها، لا الألوان ولا العطور ولا حكايات اليورو الخبير بأسرار الزهور.

في إحدى الليالي، قصَّ علينا حكاية فلاح عاش في القرن الثامن عشر، في قرية «جيثرون» الهولندية، كان لديه حقلٌ صغير زرعه بشتى أصناف الزهور. كان ذلك الحقلُ أجملَ حقول القرية وأكثرها بهاءً، وكان لذلك الفلاح منزلٌ صغير وسط الحقل، يسكنه مع أسرته. وفي يومٍ من الأيام، زار القرية فنانٌ فرنسي شهير، أهدى الفلاحَ مزهريةً نحتها لهُ من حجر البازلت تعبيراً عن امتنانه، بعد أن استضافه ذلك الفلاح في منزله شهراً كاملاً لرسم بعض أزهار حقله النادرة. وقد كانت مزهريةً بديعةَ الصنع غايةً في الجمال، وضعها الفلاحُ في صدر منزله، غير أنه تركها فارغةً، فلم يضع فيها أياً من ورود حقله الفاتنة، وكان كلما سُئل عن السبب قال: «لن تفهموا إلا إذا عشتم وسط هذا الحقل».

وظلت المزهرية على حالها هكذا، إلى أن مات الفلاح، وتوارثت ذريته تلك المزهرية، جيلاً بعد جيل، ملتزمين بتركها بلا زهور. إلى أن صار تقليداً متبعاً عند تلك العائلة حتى يومنا هذا، فإن دخلتَ بيوتهم.. وجدتَ مزهرياتهم بلا زهور.

«وما عُرف السر إلى الآن؟» تساءلتُ متعجباً، فقال الهولندي: «لا، لقد مات مع صاحبه، دون أن تموت فكرته».

كانت تلك آخرَ حكايةٍ أسمعها منه، إذ امتدّت صباحَ اليوم التالي يدُ صاحب الدكان وانتشلتني، فتعالت أصواتُ الأصحابِ مودّعين. ألقيتُ عليهم نظرة وداعٍ حزينة، دون أن أقوى على النظر إلى الياباني، الذي صاح بعد أن صرتُ خارج الدرج:

«المزهرية الفارغة أجمل.. لأن زهورها الخيال».

الشابةُ التي استلمتني من صاحب الدكان، والتي كانت تفوح من أصابعها المتعرقةِ رائحةُ تبغٍ نفاذة لا تشبه رائحة الزهور، اختارت لأمها الراقدة في المستشفى زهورَ الأوركيد البيضاء. وضعَتْ الباقة بجانب السرير، تفقّدت قطّارة المغذي، وجلست على الكرسي محدقةً بالعجوز النائمة.

على وقع دقات الجهاز الموصول بقلب العجوز، خفق السؤالُ المخيفُ في قلبي:

ماذا لو أصابني ما أصاب الين الياباني؟ ماذا لو لقيتُ مصيراً أسوأ من مصيره، فنُسيتُ وحيداً لسنوات في ظلماتِ دُرجٍ مهجور؟

أريدُ قلباً كما لهذه المرأة، أريدُ ساقين قويتين كاللتين لدى ابنتها، تحملاني إلى حيث أريد. أريد أن أطير إلى روما، فأحلّق بين تماثيلها كما حلّق بي المنطادُ في الحلم مع كوستا، ثم أطير عائداً إلى اليونان، فارداً جناحي بومتي في سماء أثينا.. كتلك البومة في حكاية الفارس الإسبارطي.

أجل، إنها بومتي! لا أحد سواها سيحملني إلى حيث أريد!

رُميتُ في دُرجٍ خشبي قديم متصدّع الجدران، بعد أن أنهكني الطوافُ بين الجيوب والأدراج حاملاً سؤالي الثقيلَ: كيف أحرّرُ البومة من جسدي؟

لم أسأل أحداً ممن كانوا في ذلك الدرج، إذ كان اليأس قد تملّكني بعد شهورٍ طوال من السؤال واستجداء الإجابة. إلى أن استيقظتُ ذات ليلةٍ على انسيابِ صوتٍ رقيقٍ عذبٍ، داعبت أنغامهُ قلبي.

تلفتُّ حولي بتثاقل المخمور باحثاً عن مصدره.. فصُعِقت!

إنها القيثارةُ المنقوشة على وجه اليورو الإيرلندي! شعرتُ برغبةٍ بالبكاء.. بالصراخ.. أوقعتُ صوتي في هياج اضطرابي.. فبقيتُ صامتاً أرتجف، حتى انتهى العزف.

«كيف فعلتَ هذا؟» سألته هامساً بصوتٍ مرتعش، فلم يجب. أعدتُ عليه السؤال فظلّ صامتاً. «كيف عزفتَ على قيثارتك؟.. أخبرني، أتوسل إليك».

«أيها اليوناني، إلى من تتوسل هكذا؟» سألني أحدهم، فالتفتُّ إليه. كان يورو إسبانياً من إصدارِ تذكاري، نُقِشت على وجهه صورةٌ لـ «دون كيخوته» يقف أمام طواحين الهواء حاملاً رمحه.

«أحدِّث ذاك اليورو الإيرلندي ذا القيثارة» أجبتهُ متأملاً نقشه الذي أعجبني.

«أيُّ إيرلندي؟! لا أحد من إيرلندا في هذا الدرج».

«بلى.. إنه هناك» ونظرتُ إلى حيث كان لأشير إليه، فلم أجده. «لقد كان هناك!» قلتُ مفزوعاً. «كان يعزفُ على قيثارته منذ قليل، أما سمعتَ موسيقاه؟».

«هدئ من روعك يا صاحبَ البومة» قال مبتسماً. «ربما كنتَ تحلم».

«لا ليس حلماً! أقول لك إني رأيته واستمعتُ إلى عزفه» أجبتُ غاضباً، بينما أجولُ بناظري في أرجاء الدرج بحثاً عنه. وحين يئستُ من العثور عليه التفتُّ للإسباني لأعتذر منه، فرأيتُ ما أفقدني صوابي.. كانت مراوح الطواحين المنقوشة خلف «دون كيخوته» على وجهه، تدور!

«إنها حيلة.. هذا الإسبانيُّ ساحرٌ كالروماني ستيفان.. لا يمكن لهذا أن يكون حقيقياً» فكّرتُ بينما يدورُ الدرجُ بي مع دوران تلك الطواحين، التي أخذت بالتباطؤ شيئاً فشيئاً.. إلى أن سكن كلُّ شيء.

«أشعرتَ بهذا مثلي؟ ألم يكن الدرجُ يدور؟» همسَ خلفي بصوتِ طفلٍ خائف.

«من أنت؟» سألته بحذر، دون أن أجرؤ على الالتفات نحوه.

«أنا يورو فنلندي. هل أنت من جعل الدرج يدور؟».

«لا، لستُ أنا» وخطفتُ إليه نظرةً سريعة. كان فنلندياً بالفعل، نُقشت على وجهه بجعتان. تنهدتُ بارتياح، ثم سألته إن كان قد رأى أيضاً دوران الطواحين، وسمِع عزفَ القيثارة، ولم أكد أكمِل سؤالي حتى شعرتُ بشيءٍ كبير يطير فوقي.. نظرتُ بارتياع، فإذا هما البجعتان تتسابقان للانقضاض عليّ.

أمسكتني الشابةُ بإصبعيها الفوّاحين برائحة التبغ، وناولتني كبقشيشٍ لسائق التاكسي الذي أوصلها إلى بيتها من المستشفى.

في سيارة الأجرة تلك، عُلقت بالمرآة الأمامية سلحفاةٌ خشبية ملونة، كانت مفاصلها تقرقع بابتهاج كلما تراقصت مع حركة المركبة.

«أتكون هذه السلحفاةُ سعيدةً بقيدها هذا؟» تساءلت. «قد تكونُ سعيدةً لأنها تجوبُ أنحاء أمستردام بسرعة المركبة، وهو أمرٌ بلا شك كانت ستُحرم منه لو كانت سلحفاةً حقيقية ثقيلة

الحركة.. ولكانت حياتها كئيبة، بطيئةً بطء مشيتها» تفكّرتُ ناظراً إلى الأشجار التي كانت تجري مسرعةً وراء بعضها على جانب الطريق.

«كيف سيكون شكلُ حياتي إن تحررت بومتي وغدت حقيقيةً؟ هل سأعيشُ حياة بومة؟ أعشقُ الليل وأخشى النهار؟.. ما الذي ستفعله العتمة بقلبي؟ أتسكنه؟ أتجعلني كائناً مخيفاً يخشى الناسُ النظرَ في عينيه الكبيرتين، ويبعثُ نعيقُه المكتوم الرعبَ في قلوبهم؟.. أيتخذونني عدواً لهم، فأطيرُ مفزوعاً كلما لاح لي ظلُّ إنسان؟ ماذا لو.. أرداني أحدُهم ببندقيته؟

أيُعقل أن أندم إن غدا حلمي حقيقة؟

أي الحياتين أختار؟.. اضطراب الحقيقي.. أم سكينة صورته؟».

هدأت قرقعة السلحفاة الخشبية حتى سكنت.

«إلى المطار» قال الرجل لسائق التاكسي قبل أن يركب. سافرتُ معه إلى لندن.. مُحلِّقاً بسرعةٍ تستحيلُ على أي بومةٍ حقيقية.

ميدستون – إنكلترا Maidstone-England |

لازمتني هلوساتُ انعتاق بومتي لشهور طوال، حتى ظننتُ بأني لن أشفى منه.. إلى أن التقيتك تلك الليلة.

-أجل .كنتَ تصرخ كالمجنون حينها» :أخرجوني من هذا القفص اللعين «كان صراخك محموماً كما لو أنك حُبستَ حقاً في قفص، ولم تهدأ إلا عندما تحدثتُ إليك.

-أحقاً لستَ مجنوناً مثل هنري يا ليو؟ ألن تخبرني كيف تستطيع سماعي والتحدث إليّ؟

-قلت لك إنها حكاية عمرٍ بأكمله.

-لماذا تأخر خالي يا أماه؟
-ليتني أعلم .ربما الطريق مسدودةٌ بالثلوج.
-اللعنة على الثلج كم أكرهه!
-ما بك؟ هل ترتجف يا صغيري المسكين؟ تعال إلى حضني .سيصل خالك عما قريب، ونملأ المدفأة بالحطب.

-ليو، هل نمت؟ ..ليو!
-ماذا يا يورو؟
-هل نمت؟
-لا، لم أنم.

-ما هذا يا ليو؟
-إنه مغناطيس.
-أرني .من أين أحضرته؟ إياك أن تكون قد سرقته من أحد زملائك في المدرسة.
-لا أمي ..لقد كافأني به مدرس الفيزياء.
-أحقاً؟ ما أسعدني بك ..لكن لماذا تعلقه حول عنقك؟
-لا أعلم، وجدته جميلاً .ألم يأتِ خالي بعد؟

-ألن تقص عليّ حكايتك؟ ..ليو!
-ها؟
-ألن تقص عليّ حكايتك؟
-أية حكاية؟
-حكايتك ..هيا، أرجوك .لقد قصصت عليك حكايتي كلها.
-لكني لم أطلب منك.
-ألهذا بقيتَ صامتاً بينما أحكيها؟ ألم تكن راغباً بسماعها؟
-بلى يا يورو ..لكني هكذا، قليلُ الكلام.
-فاخرج عن صمتك واحكها هيا.
-لكن حكايتي ليست مسليةً كحكايتك يا يورو.

-من قال أني أبحثُ عن التسلية؟
-حسناً..

هاستنجز – إنكلترا Hastings-England |

في ظهيرة شتاءٍ باردٍ قبل سبعين عاماً، كنتُ في العاشرة من عمري عندما كنت أري أمي المغناطيس الذي كافأني به مدرسُ الفيزياء. كان على هيئة حدوة حصان، صُبغ أحدُ قطبيه بالأزرق والآخرُ باللون الأحمر. عقدته بإحكامٍ برباط حذاءٍ عسكري مهترئ عثرتُ عليه في طريق عودتي من المدرسة، وعلقته حول عنقي.

بينما كنت أعبّرُ لها عن مدى سعادتي بتلك المكافأة قُرع الباب، وإذا برجلٍ غريب بدا بمعطفه الأسود الطويل كمن ارتدى ظله. انزوى بأمي وأخذ يحدثها بصوتٍ خفيض، إلى أن أطلقَت صرخةً نهض على إثرها ومضى. سرتُ نحوها بينما كانت تنوح ملقيةً وجهها على كفيها، مسكتُ ذراعيها، نظرَت إليّ من وراء دمعها، ضمتني إلى صدرها، وقالت بصوتٍ متهدج يقطرُ ألماً: خالك.

لم أبكِ لموته، لم أشعر بالحزن حتى، لم أشعر سوى بالبرد؛ برد يدق العظام أخذ يشتدُّ علينا حتى بتُّ أراه كلما شخصتُ بعينيّ في العتمة من تحت اللحاف. كان يتسلق الجدران كجيش عناكب رمادية، ناسجاً خلفه شِباكاً سوداء، لها لمعانُ الجليد. إنها أشباحُ البرد التي انبعثت بموت من كنا نتدفأ بما يحضره من حطب. لم يكن لأمي أخٌ غيره، سكن معنا منذ التحق أبي بالخدمة الإلزامية في صفوف الجيش البريطاني، بعد شهرين من اندلاع الحرب العالمية الثانية، فصار المعيلَ ورب البيت.

شهرٌ بمرارة الموت، لذتُ في لياليه الباردة إلى حضن أمي التي كانت لا تنام إلا حين تمسحُ دمعها بشعري المنفوش ككرة الصوف الصفراء، فيما أظل مستيقظاً أحاول إلهاءَ نفسي عن أشباح البرد باللعب بمغناطيسي الجديد، فألعقه بطرف لساني، أو أغمضُ عينيّ وأضع قطبيه أمامهما محاولاً تخمين أي اللونين أمام كل عين، أو أعقده بخصلةٍ من شعر أمي الغارقة في النوم، لأرى إن كان يصلحُ زينةً لـ «ماري». كانت ماري صديقتي الوحيدة آنذاك، وكانت أمها أيضاً صديقةً لأمي، تحضرها معها من الحي المجاور كلما أتت لزيارتنا. حين أخبرتُها بموت خالي قالت إنها لن تزورني بعد اليوم، أخبرتها بأنه لم يمت في منزلنا لكنها ظلت خائفةً.. ربما لم تصدقني.

لم أر ماري بعدها إلا جثةً هامدة.

مر الشتاءُ ثقيلاً علينا.. أنا بعيداً عن ماري الخائفة من شبح خالي، وأمي بلا مُعين. تولّت هي جلب الحطب الذي كان شحيحاً حينها ككل شيءٍ آخر بسبب الحرب. رحيلُ خالي عن الحياة أنقص من عمرها أكثر مما أنقصه ذهابُ أبي إلى الموت.. كنت أراقبها كيف تكبر كل يوم بين الصباح والمساء.

بغياب ماري وبؤس أمي، لم يعد لدي من ألهو معه غير ذلك المغناطيس. كنت أنتظر خروجي من المدرسة كل يوم بفارغ الصبر لأخرجه من تحت قميصي وألتقط به ما أجده من خردواتٍ صغيرة في طريق عودتي إلى المنزل. كنت أحياناً أغير طريقي للمرور ببيت ماري علّي أراها، لكن دون جدوى.. ربما كانت تراني وتختبئ.

-وما الذي يجعلها تختبئ منك؟

-لا أدري.

-فلماذا لم تحاول رؤيتها في المدرسة؟ ألم تكن في مدرستك؟

-لم يدخلوها المدرسة ..كانت بكماء.

في شهر يوليو، بعد أشهرٍ ستة من غيابها رأيتها أخيراً.. كانوا يسحبون جثتها كدميةٍ متهتكة من تحت أنقاض منزلها الذي دمرته قنبلة ألقتها مقاتلةٌ ألمانية. كانت أمي واقفةً بجانبي تحومُ بعينيها بين الأنقاض إلى أن تجمدتا عند رأس أم ماري المهشّم.. فراحت تهز رأسها بذهول كأنها تقولُ «لا» لصديقتها. شدّت على يدي وركضَت، وما توقفنا إلا على باب الملجأ.

عانقتني باكيةً فور أن دخلنا، وراحت تواسيني بفقد ماري.

«لستُ حزيناً يا أماه» همستُ في أذنها، وتركتها ومشيتُ أستكشف المكان.

كان الملجأ مكتظاً بالناس، رأيت بعض الآباء يحملون أبناءهم على أكتافهم، تخيلت نفسي جالساً على كتفي أبي، لم أستطع لحظتها تذكر وجهه، فرأيتني محمولاً على كتفيّ رجلٍ بلا وجه.

في عتمة الملجأ، كان للهو مع مغناطيسي نكهةٌ أخرى، فما كنت أجمعه في الظلام كان علي حفظه جانباً بانتظار أن يُضاء المكانُ في الصباح، للتعرف على الغنائم وإحصائها.

غادرنا الملجأ بعد انتهاء الغارات وعدنا إلى المنزل، لنجد نصفَ منازل الحي قد أصبحت ركاماً. لم يكن بيتنا قد تضرر، فأقمنا فيه من جديد.

تحولت أحياء البلدة المنكوبة إلى ساحاتٍ نهارية للعب الأطفال، وملتقيات مسائية للكبار العاطلين قسراً عن العمل، أما أنا فبقيتُ في عزلتي، مستمتعاً باللعبة الجديدة: البحث عن المعادن بين أنقاض البيوت الغنية بالغنائم.

في عصر يومٍ بارد من شهر سبتمبر، غافلتُ أمي وتسللت من حيّنا حاملاً كيسَ جمع الغنائم معلقاً مغناطيسي حول عنقي، وتوجهت إلى أنقاض بيت ماري، أملاً بجمع ما أجده من معادن تخصها، كمشبك شعرها أو حتى ملعقة طعامٍ قد تكون وضعتها يوماً في فمها العابق دائماً برائحة شراب القيقب.

جلستُ على بقايا أريكةٍ مقلوبة فوق تلةٍ من أنقاض منزلها، بعد أن أخفقتُ في العثور على أيٍ من أشيائها تحت ذلك الركام المخيف.. وبكيت.. بكيتُ حين تذكرتُ وجهها المصطبغ بالدماء المعفر بالتراب.

أيقظتني لفحة هواء باردة، تلفتُّ حولي بهلع، كان الظلام قد خيّم. نزلتُ عن كنبة ماري وقفلتُ عائداً قاصداً منزلي، سالكاً طريقاً آخر ظننتهُ مختصراً، لكنه أفضى بي إلى حيٍّ لم أدخله من قبل. اشتدت العتمة في المدينة وازداد الليلُ برداً، فدخلتُ أحدَ الأبنية واختبأتُ تحتَ الدرَج متكوراً على نفسي كأرنبٍ خائف، وأمضيتُ الليلة مستيقظاً أتحسس المغناطيس بيدٍ ترتجف.

قُبيل بزوغ الفجر، علت صفّاراتُ الإنذار ودوت بعدها انفجاراتُ القنابل، مسبوقةً بأزيز طائراتٍ شقّ أذنيّ.. وحين توقّف كل شيء، كنت غارقاً في بولي، أرتجف.

استعدتُ انتباهي حين سمعتُ صيحات السكان ودبيب أقدامهم على الدرج فوقي، فخرجتُ من مخبئي وركضت خلف مجموعةٍ منهم. كانت الشمس قد طلعت والناس في الخارج يركضون كالمجانين حاملين أولادهم إلى الملاجئ بين أعمدة الدخان، بحثتُ بعينيَّ الجزعتين عن وجه أمي بين الوجوه الخائفة فلم أجدها، إلى أن بلغتُ الميناءَ مع من ركضتُ معهم، وركبنا سفينةً كانت على وشك الإبحار. لم أجرؤ على إخبارهم بأني لا أريد الرحيل معهم، وبأني أريد العودة إلى أمي، خشيت لفتَ انتباههم إلى سروالي الغارق بالبول إن تحدثت، فبقيتُ صامتاً، لا صوت لي غير اللهاث.. وأبحرت السفينة.

-وماذا عن أمك؟

-لم أرها منذ ذلك اليوم .ربما تكون قد توفيت في تلك الغارة ..أو حزناً على فقدي.

-كيف استطعت تركها؟
-حاولتُ الرجوع، لكن المغناطيس منعني.
-كيف منعك؟
-نم الآن يا يورو ..فلم أعد قادراً على فتح عينيّ.
-أنت ..أيها الصغير، تعال إلى هنا .أين أهلك؟
-أمي في هاستينغز.
-ووالدك؟
-في الحرب.
-مع من أتيت إذاً؟
-لا أحد.
-ما اسمك؟
-ليو.
-تعال معي يا ليو ..هل أنت جائع؟

-ما الذي تشعرون به حين تأكلون؟
-نشبع.
-لا يا ليو ..عنيت الآن وأنت تأكل، ما هو شعورك؟
-أشعر بأني أوشكتُ أن أشبع.
-أعني هل في تناول الطعام شعورٌ جميل؟
-لا أعلم يا يورو إن كان جميلاً أم قبيحاً، أنا لا أشتهي الطعام، أتناوله لأسكت جوعي.
-وهل يتحدث الجوع؟
-لا أظنه يتحدثُ أكثر منك يا يورو.
-ها قد سكتُّ، أكمل حكايتك.

ليد – إنكلترا Lydd-England |

رست بنا السفينة على شواطئ ليد، وهي بلدةٌ مطلة عل القنال الإنجليزي، لم تكن بعد قد طالتها نيران الحرب.

كنت قد أمضيت الرحلة نائماً من شدة الإعياء، ولم أستيقظ إلا حين رسونا. رآني جندي من حرس الميناء سائراً وحدي فناداني، وأدخلني محرسَه. كان شاباً لطيفاً رقيقاً يشبه البنات، أطعمني ثم ألبسني سروال بيجامته ريثما يجف سروالي الذي غسله من البول، ثم اصطحبني معه إلى البلدة عندما انتهت نوبة حراسته، وأودعني لدى مأمور محطة القطارات.

كان شيخاً بلحيةٍ بيضاء تشبه لحية بحارة القنال، مكثتُ عنده ما يزيد عن الشهرين، أساعده وقت العمل، ووقت الراحة ألهو بمغناطيسي فوق سكة الحديد. كان لتسيير المغناطيس على السكة متعةٌ كبيرة، فكنت أنسى نفسي ولا أنتبه إلا وقد ابتعدت عن المحطة مئات الأمتار.

في فراش النوم ليلاً، وبعد سكون كل شيء، كانت تزورني أطياف أمي فأرى ابتسامتها، أسمع صوت غنائها الحلو بوضوح أشدَّ من صوت مرور القطارات، أشم رائحتها الدخانية، أشعرُ بأصابعها النحيلة تغوص بين لفائف الصوف على رأسي.. أرغب بالبكاء فلا أستطيع.. أحاول الصراخَ منادياً عليها.. فلا أجد الصوت.. أترك المغناطيس من يدي.. فأستعيدُ دمعي.. وأصرخ.

بدأ البرد يشتد في المحطة في شهر نوفمبر، وبدأ العمل مع ذلك الشيخ ينهكني، وكنت قد سئمتُ لعبة القطار المغناطيسي، فعزمت على الفرار. تسللتُ إلى أحد القطارات غير عالمٍ بوجهته، لا شيء معي سوى المغناطيس.

كانت المقطورة التي اختبأت فيها محملةً بصناديق خشبيةٍ ثقيلة محكمة الإغلاق.. بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي، متعاظماً كلما تقدّم القطار.. إذ بدا لي متجهاً إلى أرض معركةٍ لإمداد المقاتلين بالذخيرة والسلاح. رأيتُ نفسي جثةً مهشمةً بين تلك الصناديق كماري.

وصل القطار ليلاً إلى محطة «نيو رومني». كانت الأجواءُ هادئةً ولا صوت للمعارك، تسللتُ من فوري وركضتُ إلى داخل البلدة، كان المغناطيس المتأرجح أمام صدري يقودني.. يوجّهني.. وكنتُ أتبعه.

طرقت بهلعٍ بابَ منزلٍ مضاء النوافذ، فتحت لي سيدةٌ عجوز وأدخلتني دون أسئلة.

من ذلك المنزل بعد خمس سنين، شهدتُ احتفالَ الناس بانتهاء الحرب. كنتُ حينها فتىً في الخامسة عشر من عمري، طويلاً نحيلاً حليقَ الرأس، قليلَ الكلام، يتدلى فوق صدري المكشوف مغناطيسٌ باهتُ الطلاء كثيرُ الخدوش.

سنواتٌ خمس في ذلك المنزل، قضيتها في كنف العجوز وابنتها التي كان زوجها قد ذهب كأبي إلى الحرب، لكن دون أن يترك لها ابناً يؤنس ليلها كما فعل أبي، فاتخذتني ابناً لها وصرتُ الحفيدَ المدلل لأمها.

لم أنسَ يوماً اسمَ والديّ، ولا اسمَ بلدتنا ولا عنوانَ منزلنا، لكن شيئاً كان ينطقني بـ «لا أذكر» كلما سُئلت. ظنوا بأني قد فقدت ذاكرتي إثر حادثةٍ أو صدمةٍ ما تعرضتُ لها أول الحرب، فكفوا عن سؤالي وقرروا أن يمنحوني حياةً جديدة، واسماً جديداً.

مع مرور الوقت راح ذلك الشيء يزداد إحكاماً علي يوماً بعد يوم، فازددتُ انطوائيةً وازداد ولعي بجمع الخردوات، ثم بدأت أشعر بأمرٍ غريب.. صرتُ أشتهي أكل الحديد، فألعقه بشراهةٍ كما

يلعق الكلبُ العظام، إلى أن تذوقتُ مرةً برادة الحديد فأسكرني طعمها، وصرتُ ألمها بمغناطيسي من كل مكان أجدها فيه، وأخبئها في أكياس صغيرة لأرشها خلسةً كالملح على طعامي.

عندما وضعَت الحربُ أوزارها كنتُ قد أصبحتُ شيئاً آخراً لا يشبه الإنسان سوى في مظهره، أما داخلي فصار صلباً قاسياً.. كقطعة الحديد.

لم أجد صعوبةً حينها في الرحيل عن العجوز وابنتها دون وداع. غادرتُ المنزل فجراً بينما كانتا نائمتين، ولم أعد إليه بعدها.

باريس – فرنساParis-France |

في شهر يوليو من عام 1945 وصلتُ إلى فرنسا عن طريق القنال، أقمتُ في باريس، وعملتُ هناك في بيع الصحف، كنت أحملها على دراجةٍ هوائية وأجوب بها شوارع المدينة.

كان لبُرادة الحديد في باريس طعمٌ أشهى من التي في بلادي، ولم أكن بحاجةٍ لتناولها سراً كما اعتدتُ عند السيدتين، فازدادت كمية ما ألتهمه منها كل يوم.

ذات مساء، بينما كنتُ عائداً إلى مسكني راكباً دراجتي، سمعتُ اسمي يُنادى بما يشبه الغناء. كان صوتاً غريباً كأنه لمخلوقٍ من السماء، أشعرني بخدرٍ لذيذ، فانعطفتُ بلا وعيٍ وتتبعتُ مصدر ذلك الصوت، إلى أن وجدت نفسي أمام هيكله العظيم. ورحت أطوف بالدراجة بين أرجله بفرحة العطشى تحت سماءٍ ماطرة. بدأ المغناطيس المدلى فوق صدري يرتجف، وراح ارتجافه يزداد تسارعاً مع كل دورةٍ أنهيها. شعرتُ بطاقةٍ عظيمة تتفجرُ في جسدي كلما درتُ أكثر، إلى أن بدأ المغناطيس بالاندفاع نحو صدري وكأنه يحاول اختراقه، ثم اهتزَّ هزةً قويةً أرجفتني، مُطلقاً صوتاً كطنين نحلةٍ حديدية.



Eiffel Tower – 1945 – برج إيفل

انتفضتُ فزِعاً حين دُلِق الماءُ على وجهي، أخبرني أحدُ من تجمعوا حولي بأني كنت أطوف بسرعةٍ كالممسوس تحت برج إيفل قبل أن ينقطع جنزيرُ الدراجة وأهوي مغشياً عليّ.

لم يمض وقتٌ طويل حتى تحولِ اشتهائي للحديد إلى عشق. فكففت عن لعقه والتهام برادته، وبدأت بمناجاته والإنصات إليه محاولاً سماع همساته، مصدقاً إحساسي المتنامي يوماً بعد يوم بأنه قادرٌ على سماعي والتحدث إلي.. كما تحدّث البرج.

بعد عدة أشهر على تلك الحادثة، دقت باب مسكني ليلاً إحدى المومسات الجوالات عارضةً علي نفسها، فصددتها. رجتني أن أدخلها لتبيت عندي احتماءً من المطر الشديد في الخارج فلم أشفق عليها، لكنني أدخلتها بعد أن عرضت علي تنظيف غرفتي وغسل ثيابي مقابل المبيت. حاولَت إغوائي غير مرة بينما كانت ترتب الغرفة، وبعد أن انتهت من غسل ثيابي استحمت وخرجت

إلي عاريةً، فلم تحرك داخلي شيئاً، لكنها لم تستسلم، فارتمت بنهديها الممتلئين فوق صدري، وحين دفعتها عني تمسّكت بقلادة المغناطيس فقطعت الحبل.. وغبتُ عن الوعي.

حين أفقتُ من إغمائي لم أجدها، ربما هربت لظنها بأنني قد متّ. تذكرتُ ما حدث، فانتفضتُ كالممسوس باحثاً عن المغناطيس على السرير وتحته وفي كل أركان الغرفة دون أن أجده. جن جنوني، فخرجتُ راكضاً كالثور الهائج بين الأزقة مفتشاً عنها، إلى أن استبد بي التعب فجثوت على الأرض وبكيتُ كما لم أبكِ طوال حياتي. ربما لبثتُ على تلك الحال ساعةً أو ساعتين قبل أن أنهض، وأعود إلى مسكني شاقاً عتمة الليل البارد متهادياً.. كميتٍ خرج من قبره.

في الليلة تلك، سقطت آخرُ قطعةٍ آدميةٍ من روحي.

-ألم تحاول البحثَ عنها مرةً أخرى؟

-لم أذر شبراً تطأه أقدام البشر إلا وبحثتُ فيه عن تلك العاهرة .قصدتُ كل »بورديل«، وسألتُ عنها واصفاً للمومسات وجهها القططي ونهديها، فكنتُ كمن يصفُ جنيةً ما رآها غيرُه، ولم يسمع بها أحدٌ سواه .بحثتُ عنها في الحدائق والمرافق والشوارع والأزقة والحانات والمطاعم وكل أنحاء المدينة .لم يكن ذلك الإصرارُ نابعاً من تعلقي بالمغناطيس ورغبتي الشديدة في استعادته وحسب، لكنه خوفي من الوهن الذي بدأ يلتهم جسدي مذ فقدته ..فشعرتُ أني ربما سأموت، إن لم أستعده.

بعد شهرٍ من البحث المضني، كان الوهنُ قد بلغ ذروته، فلم أعد قادراً حتى على قيادة الدراجة، جررتُها إلى برج إيفل بساقين راجفتين.. كان الليلُ قد أرخى سدوله حين وصلتُ متهدجَ الأنفاسِ إلى البرج. ركبتُ الدراجة بعد أن استرحت، ورحتُ أطوفُ تحته مترنحاً بما تبقى بي من قوة، لكن دون أن يجدي ذلك في شيء، إذ لم أشعر سوى بمزيدٍ من الوهن والتعب. نزلت عن الدراجة وارتميتُ على الأرض، مسنداً ظهري إلى إحدى أرجل البرج المتجمدة من البرد.. ونمتُ مرتجفاً بوجهٍ يشبه الموتى، محتضناً دراجتي.

في الصباح، كنتُ مكسواً بغطاءٍ ثلجيّ سميك حين لمع في عينيّ شعاعُ الشمس من بين الغيوم. نهضتُ بتثاقل، نفضتُ الثلجَ عن رأسي وكتفيّ غيرَ مصدقٍ لما أشعرهُ من دفءٍ عظيم، وسحبتُ الدراجةَ من تحت الثلج كما يُسحبُ المنديلُ من الجيب.

ركبتُ الدراجة وانطلقتُ بها شرقاً بمحاذاة نهر السين مغادراً باريس، وما توقفتُ إلا في قلب مدينةِ ديجون.

لم أشعر بأي تعب على امتداد الطريق الطويل، لم أشعر سوى بقوةٍ عظيمة وسعادةٍ لم أشعر بمثلها من قبل. لم أكن أعلم لِمَ غادرتُ باريس، ولماذا قصدتُ ديجون دون سواها، لكن علمتُ مذ دخلتها بأن حياةً جديدة كانت تنتظرني على أبوابها.

ديجون – فرنسا Dijon-France |

كمن يحفظُ الطريقَ إليها عن ظهر قلب، توجهتُ من فوري إلى محطة «ديجون ڤيل» للقطارات.كنتُ كلما اقتربتُ أكثر من حديد سككها وقطاراتها أشعرُ كما لو أن الدراجة ترتفع بي في الهواء، فأغدو خفيفَ الوزن أكثر فأكثر، إلى أن دخلتها كريشةٍ أدخلها النسيم من النافذة.

أوكلوا إليَّ في تلك المحطة أعمالاً تشبه التي كنت أقومُ بها في محطة ليد، وأسكنوني غرفةً تابعةً لها شاركني أسرّتها عمالٌ ثلاثةٌ كنتُ أصغرَهم، حاولوا أن يقرّبوني إليهم ويجعلوني واحداً منهم فلم يفلحوا. كان نفوري من الناس أشد وأقوى من محاولاتهم تلك، فأظل صامتاً إذا تحدثوا، واجماً إذا ضحكوا، لا أشاركهم الطعام ولا أحدثهم إلا إذا اقتضت ضروراتُ العمل.

لم يمض وقتٌ طويل حتى بدأتُ أرى نظرة الإشفاق في عيونهم، ويرون في عينيّ ما ظنوهُ خوفاً، وما دروا بأنها نظرة اشمئزاز. بتُّ أشمئز من طراوة أجسادهم، فيصيبني الغثيان إن نكزَت يدي خطأً زندَ رجلٍ أو وركَ امرأة، وأعافُ نفسي كلما لاحظتُ أن في جسدي الهزيل لا يزال بعضُ الشحم الطري، فأصوم ما استطعتُ عن الطعام طمعاً باكتساب صلابةٍ كصلابةِ الحديد.

عندما انقضى بردُ الشتاء اعتزلتُ غرفة العمال متخذاً من مقطورةٍ مهجورةٍ تُركت على أطراف المحطةِ مسكناً لي، فأنامُ كل ليلة، مصغياً بسكينةٍ لصوت جنزير دراجتي بينما أدوّرُ الدوّاسة بيدي.

ليلةً إثر ليلة، تحوّل هسيسُ حلقاتِ الجنزير إلى وسوساتٍ بلغةٍ غريبة، تُصيبُ رأسي بخدرٍ لذيذ، وتُسري في عروقي قشعريرةً باردة كلما سمعتها، إلى أن بدأتُ أشعرُ بمعنى ما يقال حتى غدا مفهوماً لدي تماماً كما لو أنه يُقال بلغةٍ بشريّة من التي أجيدُ التحدث بها. كانت الدراجةُ كلما دوّرتُ دواستيها ودار الجنزيرُ حول الترس، تستعيدُ شريط ذكرياتها وتبدأ بسردها مشهداً تلو مشهد منذ أن صُنِعَت وصولاً إلى اللحظة التي نحن فيها، ثم تُعيدُ الشريطَ مرةً أخرى، وهكذا كلما دار الجنزير. حاولتُ التحدّث إليها بالإنجليزية والفرنسية، لكنها لم تستجب. حاولتُ التكلم بلغتها لكنني لم أستطع نطقَ الحروف.. فتمنيتُ لو أن لي لساناً من حديد.

مع مرور الوقت، بدأ نطاقُ سماعي للحديد يتسع، فصرتُ قادراً على سماع وشوشات السكك لبعضها، وغناء القطارات الرابضة فوقها، وهذيان عجلات مقطورتي الذي كان ينتهي أحياناً بصرخةٍ لها أزيزُ مكابح يقض مضجعي فاستيقظُ مفزوعاً.

بدأتُ بعدها ألاحظ خفة الحديد بين يديّ، فغدت ملعقة الطعام بلا وزن، والدراجةُ بوزن الملعقة، وعربةُ الصيانة بوزن دراجة، وبات بوسعي أن أجر قاطرةً كما يجر عامل البناءِ عربةً صغيرة، محملةً بالرمل.

-اللعنة !هل تشمون رائحته؟
-أوه .!ألا يستحم؟
-ليست رائحة عرق، إنها ..إنها رائحةُ صدأ!

بعد أن كنتُ المبادرَ بالنفور من العمال، انقلبت الحالُ وباتوا يتجنبون الاقتراب مني تقززاً من رائحة صدأ كانت تفوحُ من جسدي كلما تعرّقت، والتي أخذت حدتُها بالازدياد يوماً بعد يوم، فصرتُ أرى بعض الركاب يغلقون أنوفهم إن مروا على بعد أمتارٍ من أمامي.

رغم إعجابي بتلك الرائحة، حاولتُ التخلصَ منها مراراً بكثرة الاستحمام لتجنب نظرات الاشمئزاز، لكن دون جدى.. إذ كان الماء يزيدها نفاذاً.

ثم بدأتُ ألاحظ توقف القطارات عن الغناء والسكك عن الكلام كلما مررتُ بقربها، كما لو أنها علمت بأمر سماعي لها، فازداد ضيقي يوماً إثرَ يومٍ، إلى أن طفح الكيلُ وما عدتُ قادراً على المكوث أكثر في مكانٍ بتُّ فيه منبوذاً من البشر، مريباً للحديد، فتركتُ العملَ في المحطة.

غيرَ عالمٍ بوجهتي، ركبتُ الدراجة وانطلقتُ في شوارع ديجون. لم ألقِ بالاً لحديث الدراجة المكرور، التي أخذت تعيدُ شريط ذكرياتها بينما يدورُ الجنزير، إلى أن وصلَت في حديثها إلى حكاياتها معي، فرنّت في أذني العبارةُ التي أسرَت القشعريرةَ في جسدي، وضخّت في عروقي برودةً جمّدت أطرافي:

«وشاع الخبرُ بين حديد المحطة، بأن العاملَ الإنجليزي قد تحوّل إلى مغناطيس».

-غدوتَ مغناطيساً؟ ألهذا إذاً تستطيع التحدث إليّ؟ أتدري يا ليو ..لم ألتق بمغناطيسٍ في حياتي سوى مرة واحدة عند كوستا، كان مغناطيسه دائرياً من الذي تُثبّت به الأوراق على الأسطح المعدنية .وضعني حينها على ورقةٍ من دفتره، وأخذ يحركني بالمغناطيس من تحتها، فيزلّجني في مساراتٍ دائريةٍ ولولبية .كان إحساساً لذيذاً ..لا أعني متعةَ التزلج ..بل شعورَ الانجذاب.

-تفضل، كم رغيفاً تريد؟ ..أيها الشاب !كم رغيفاً تريد؟
-لا أريدُ خبزاً.
-ماذا تريد إذن؟
- ...
-ما حاجتك؟ قل يا بني، لا تخجل .أتحتاجُ نقوداً؟
-لا
-فما حاجتك إذن؟
-أريدُ ..أريدُ فقط أن أتدفأ قليلاً أمام الفرن في الداخل.
-ماذا؟ لكننا في يونيو !أتشعر بالبرد حقاً أيها الفتى؟ أخشى أن تكون محموماً ..
-لا، أنا بخير، أيمكنني الدخول؟
-حسناً، هيا ادخل، وابقَ بعيداً عن الخباز كي لا تعيق عمله.

لم أقترب من الخباز، ليس انصياعاً لتحذير الرجل المسن صاحب المخبز، إنما خشيتُ أن يشمّ رائحتي إن تعرقتُ من حرارة الفرن فيطردني.

بدأ البردُ ينسلخُ سريعاً عن جسدي وتحول الدفء المفاجئ إلى حرٍّ شديد جعلني أتصبب عرقاً، فتحفزتُ للهرب قبل أن تفوح رائحة الصدأ.

«لا أشمها!» حدّثتُ نفسي متعجباً. غادرتُ المخبز بهدوءٍ غيرَ فاهمٍ لما حصل، وما إن ركبتُ دراجتي وابتعدتُ قليلاً حتى فاحت الرائحة من جديد.

لم أعلم إلى أين أذهب، وأين بوسعي أن أبيت ليلتي تلك بعيداً عن أنوف البشر وضجيج المعادن.. الدراجةُ تثرثر، أعمدةُ الإنارة تصيح بأرقامها في الشوارع: واحد وعشرون.. اثنان وعشرون.. ثلاثةٌ وعشرون.. تمرُّ عربةٌ عسكرية تصدحُ بأغانٍ حفظَتها من الجنود، حاوية القمامة تسبُّ الناسَ بأقذع الألفاظ، أغطيةُ الصرف الصحي تتناقل رسائلها عبر المجارير، هسيسُ العملات المعدنية في جيوب المارة تحوم في الهواء كوسوسة الشياطين.. تتشابكُ الأصوات في أذنيّ.. يتخبّط الصداعُ في رأسي حتى يكاد ينفجر.. يخترقُ جدارَ ذاكرتي أزيزُ المقاتلات الألمانية.. يجتاحني

الهلع.. أترجّلُ عن الدراجة وأحملها راكضاً إلى أقرب مبنى وأرتمي تحت سلّمه متكوراً على نفسي كأرنبٍ خائف.. متحسساً صدري الخالي من قلادة المغناطيس بيدٍ ترتجف.. وأبكي. كان بكاءً له صوتٌ كخوار الثور، بغير دمع.. مع حرقةٍ شديدةٍ في العينين، كما لو أن حفنةً من برادة الحديد تدورُ تحت جفنيهما.

استيقظتُ قبل طلوع الشمس، فوجدتُ بنطالي غارقاً في البول. خرجتُ من المبنى ودرتُ حوله إلى أن عثرتُ على قسطلٍ حديدي ممدودٍ من سطحه، تسلقته بخفة القطط مستعيناً بجاذبيتي، وقفزت على شرفةٍ عُلِّق عليها حبلُ غسيل، نشلتُ بنطالاً كان لا يزال مبتلاً، ثم تابعتُ التسلق إلى السطح، وارتديتُ البنطال وراء خزان مياهٍ عملاق ضحك بسخريةٍ حين خلعتُ سروالي الداخلي الغارق بالبول، فلكمته بغضبٍ فانبعج كما لو أن شاحنةً قد صدمته، ودوى صوتُ الارتطام كانفجارٍ عظيم، أجفل الطير عن سطوح الأبنية المجاورة وأسلاك الكهرباء.

على باب مخبزه، وجدني «برونو» جالساً بانتظاره. رجوته أن يجد لي عملاً لديه فوافق دون تردد، وأدخلني. عملتُ عنده مساعداً للخبّاز، واكتشفت هناك أن رائحة الطحين هي التي تقتل رائحة الصدأ المنبعثة مني، فصرتُ أدهن جسدي بما تيسّر منه قبل عودتي إلى الغرفة التي استأجرتها على بعد أمتارٍ من المخبز.

بمرور الأيام، بدأتُ أسيطرُ على قدرتي في سماع الكائنات الحديدية وقتما أشاء، ثم بدأتُ أتحكم باختيار من منها أود سماعه تحديداً في لحظةٍ بعينها، فأقصيتُ عن أذنيّ أول ما أقصيتُ صوت دراجتي، ثم أعمدة الإنارة وأغطية المجارير ذات الرسائل القذرة، إلى أن أتيتُ على كل ما في الشوارع من حديد، فلم أبقِ إلا على صوت غناء القطارات الذي ظل يصلني خفيضاً من بعيد. أما الجذب فاستغرقتُ وقتاً أطول كي أستطيع التحكم به.

كنت أقضي عُطلَ الآحاد في مسكني فلا أبرحه إلا صباحَ الاثنين إلى المخبز. بقيتُ بغير صاحب، لا أكلم من البشر سوى الخباز وربِّ العمل، إلى أن بدأت أشعر بالوحشة وبحاجتي لصديق، فصرت أخرج كلَّ يوم أحدٍ أجوب بدراجتي شوارع المدينة، مصغياً لكل كائنٍ حديديٍّ جديد أمرُّ به، باحثاً بينها عمّن يمكن أن أتخذه صديقاً.

أكثر ما شدني من بين تلك الكائنات في ديجون هي التماثيل، تمنيت لو أنها مصنوعةٌ من حديد لأتخذها جميعاً أصدقاءً لي، وبخاصة تمثال صانع النبيذ البرونزي «بيروزاي» في البلدة القديمة.

كنت جالساً عند ذلك التمثال مرةً، أتأمل صدره العاري، حين وقف بجانبي رجلٌ وشمَ أحدَ زنديه العريضين بصورة حبيبته، فركبتُ دراجتي وانطلقت إلى دكان حِدادة على بعد حارتين، جذبتُ من مخلفاته برادة حديد بمقدار قبضة يد، ثم وقفتُ أمام المرآة في مسكني عاريَ الصدر.. ورسمتُ عليه بالبرادةِ حدوةِ حصان، كالشكل الذي كان عليه مغناطيسي.

«المغناطيس الإنجليزي»، هكذا أطلقت عليّ المخلوقات الحديدية في ديجون. كنت أحياناً ألاعب بعضها لطرد السأم، كأن أجعلَ علب البيرة الفارغة تتقافز حولي راقصةً تقرقع على بلاط الغرفة، أو أدخلَ المطبخ عارياً وألصق الأواني بجسدي فأبدو مثل فارسٍ بدرعه الحديدي، أو أجذب الدراجة نحوي ثم أدفعها من جديد قبل أن تصلني.



تمثال صانع النبيذ – ديجون **Dijon – Le Bareuzai**

على الرغم من سعادتي بحياتي الجديدة تلك، غير أن أشباح الحياة السابقة ظلت تزورني في المنام بين كل حين..زعيقُ الكوابح في ليالي العزلة في المقطورة المهجورة.. نظراتُ الاشمئزاز.. انقطاع القلادة في يد المومس.. أثرُ حبر الجرائد على يديّ في باريس، الذي كان يذكرني بشِباك البرد السوداء في هاستنجز.. صناديقُ الذخائر ليلةَ الهروب من ليد.. أزيز الغارات الألمانية ودوي انفجاراتها.. فأستيقظ مفزوعاً أرتجف.. أتحسس وشم البرادة على صدري إلى أن تُدمى يداي، ثم أنهض من فراشي راكضاً بين الأزقة باحثاً عن الأبنية العالية، لأصعد سطح إحداها وأنهال بقبضتي على خزان ماءٍ عليها بكل ما أوتيتُ من عزم، مُحدثاً دوياً هائلاً يقضُّ مضجع أهل المدينة.. ويُسكن روعي.

تزايد غضبُ الأهالي من دوي الخزانات لما كان يسببه من رعبٍ للنساء والأطفال في ليالي الخريف الهادئة، فشكلت الشرطة المحلية دورياتٍ ليليةٍ خاصة انتشرت في أحياء المدينة بهدف القبض على «قارع الخزانات» كما أسموني.

ها هو هناك ..إنه فوق ذلك السطح ..لا تدعوه يفلت منكم.

كانوا خمسةَ رجالٍ ربما، وكان من السهل عليّ تهشيم وجوههم بقبضتي التي لها صلابة الحديد، لكن الخوف منعني. وقعُ خطاهم الغاضبة على درجات السلم جعلني أرتعد، ركضتُ إلى حافة السطح لأنزل على المواسير، فوجدتُ المزيد من العساكر في الأسفل يحاصرون المبنى، دنت أصوات الصاعدين، ففتحتُ غطاء الخزان، وغصتُ في مائه.

كان منسوب المياه مرتفعاً، بالكاد استطعت إبقاء أنفي فوق سطحها لأتنفس، فيما كانت جلبةُ العساكر من حولي تقرع أذنيّ متعاظمةً من خلال جدران الخزان الذي كان لا يزال يئن متألماً من لكمتي. لم يكن ليخطر ببالي أن يكون بعضُ الحديد أشدَّ حقداً من البشر، فلم أنتبه إلى رغبة الخزان بالانتقام من لكمتي التي شوّهت وجهه، فصدّقتهُ دون تردّدٍ حين ظل يحذرني من الخروج بعد أن غابت أصوات العساكر، مدّعياً بأن شرطيين بسلاحيهما بقيا متربصين على السطح بصمتٍ دون

حراك بأمر من قائدهما. مكثتُ في جوفه ربما عشرين ساعة، أمضيتُها واقفاً دون أدنى حركةٍ ما استطعت، خشية إصدار أي صوت يشي للشرطيين المزعومين بمكان اختبائي. كانت الرطوبة شديدةً بداخله، والأكسجين شحيحاً، لكنني لم أجرؤ على رفع الغطاء ولو قليلاً لإدخال بعض الهواء، إلى أن تقشر بعضُ جلدي من شدة الرطوبة والتعرق وزاغت عيناي واستبد بي الغثيان وشعرت بالاختناق، فدفعتُ الغطاء أخيراً بيدين واهنتين، وبالكاد استطعتُ سحب نفسي منه. تقيأتُ فور ارتمائي بجانبه وغبتُ عن الوعي. بقيتُ ممدداً هكذا تحت الشمس الحارقة طوال النهار التالي، إلى أن استيقظتُ مساءً على صوت قهقهة الخزان. حاولتُ النهوض فلم أستطع، انتظرتُ حتى حل الظلام فزحفتُ إلى حافة السطح وانزلقتُ على أحد القساطل ورحتُ أحبو في الأزقة المعتمة متجنباً عيون عناصر الدوريات، إلى أن وصلتُ أخيراً إلى منزلي.

حين استيقظتُ صباحاً لم أستطع تحريكَ أطرافي، كانت جميعُ مفاصلي قد تيبّست تماماً.

«لن يخلصك من لعنة الشيطان هذه سوى البومة» قال السيد برونو، صاحب المخبز، بعد أن حيّرت علتي الأطباءَ الذين أحضرهم إلي، فاشترى لي كرسياً متحركاً، واصطحبني إلى كنيسة «نوترو دام».

كانت بومةً حجرية منحوتةً بالدعامة الغربية للكنيسة، كان عليّ أن أمسح بيدي اليسرى على رأسها ثلاثاً وأوشوشها بحاجتي، لكن لعجزي عن النهوض، ولأن يديّ كانتا متيبستين، وقف الكاهن بيني وبينها، وأمسك بيدي اليسرى وتولى هو مهمة المسح على رأسها. وبينما كان يتضرع إلى البومة بشفائي، اهتزّ الصليب الحديدي الكبير المعلق على صدره ومال إلي بقوةٍ حتى كاد أن يقطع سلسلته، ثم ارتخى من جديد.



بومة ديجون **The Owl of Dijon**

التفت الكاهن إلى برونو ذاهلاً فوجده لم ينتبه لما حدث، فاختلس نظرةً إليّ، فتظاهرت بانشغالي بتأمل البومة.

«هل أنت بخيرٍ يا بني؟» سألني الكاهنُ مبتسماً، أجبتهُ بصوتٍ خفيض: «أجل، بخير».

«إن كنتَ لا تمانع يا سيد برونو أريد أن نستضيف ليو لدينا هنا في الكنيسة، ريثما يشفى» قال لصاحب المخبز بينما نسير مبتعدين عن تمثال البومة، دافعاً كرسيي بنفسه.

«هل سيشفى يا أبانا؟» سأله بلهفةٍ.

«يبدو فتىً صالحاً يحبه الرب، وإن أحب الربُّ سقيماً من أبنائه شفاه».

كان اسمُ ذلك الكاهن «وليام». هيأ لي غرفةً بجانب غرفته، وتولى بنفسه أمر خدمتي وقضاء حاجاتي.

صرتُ كلما دخل عليّ غرفتي أو سار مغادراً أجعل تمثال العذراء الحديديّ الصغير الموضوع على الرف يدور متتبعاً مشيته، وكلما صلى لأجلي ممسكاً بصليبه أهزّه في يده. ظل بداية الأمر متكتماً عمّا يراه من معجزات سعيداً بحدوثها أمام عينيه، شاكراً الرب أن خصه برؤيتها دون سواه من كهنة الكنيسة وقساوستها، حتى أنه كتمها عني ظناً بأني لم ألاحظها قط. إلى أن أخبره برونو بأمر مواظبته على دهن جسدي بالطحين تلبيةً لرغبتي كلما زارني، وبأن للوشم المرسوم على صدري ملمساً خشناً غريباً. هنا شعر الكاهن بالخوف فهرع إلى الأب «ألفرد» كبير القساوسة، وباح لهُ بسرّي.

«ما حكايتك يا بُنيّ؟ ما سرُّ الطحين؟ وما الذي شلّ أطرافك؟» سألني الأب «ألفرد» في صومعته وقد وقف وراءه الكاهن وليام مطرقاً رأسه خجلاً من وشايته.

لم أجبه. أعاد علي السؤال بينما يدور حولي بهدوء.

«هل تؤمن بالرب؟ هل الشيطان صديقك؟».

لم أعلم أي الإجابتين أختار.

«هل يسمح أبانا بالتحدث إليه على انفراد؟» سألتُه.

لمحتُ خوفاً في عينيه ممزوجاً بفضول المعرفة، أمرَ الكاهنَ بالانصراف، وأخذ لنفسه مسافة أمانٍ كافية متذرعاً بحاجته للجلوس على كرسي مكتبه.

«ها قد صرنا لوحدنا، فأخبرني بحقيقة الأمر».

كنت جالساً على كرسيي المتحرك وكانت ذراعاي كعادتهما متيبستين على ذراعيْ الكرسي. جعلتُ عجلتيه تدوران فمشى بي إلى أن اصطدمَت ركبتاي بطاولته فانتفض من كرسيه كالممسوس.

«لا تخف يا أبانا، لا أنوي إيذاء أحد.. لا في الكنيسة ولا خارجها. كل ما أصبو إليه هو الشفاء».

اختار الأبُ الإجابة الأولى، وما عاد أحدٌ يدفع كرسيي سواه.

ظل أمرُ معجزاتي سراً بين ثلاثتنا، أنا والكاهن والأب. كان الأبُ «ألفرد» شيخاً في عقده السابع، قليل الكلام كثير التأمل والابتسام، كنتُ أراه يبتسمُ لكل ما في الكنيسة من جمادات وكأنه يسمعها سماعي للحديد، كان يتولى بنفسه مهمة تلميع الصلبان والتماثيل والأيقونات بكثير من الأناةِ والصبر، فلا يفتقده تلاميذه إلا وجدوه معتلياً سلماً أو منبطحاً على الرخام يمسحُ الغبار عن قدميّ المسيح.

لم أكن أفارقه إلا ساعة النوم. كانت أحاديثُه الأجمل، تلك التي كان يحكيها بُعيد طلوع الشمس بصوته الرخيم المنخفض بينما يمسحُ النوافذ المعشّقة بقطع الزجاج الملونة.

تعلمتُ منه الكثير مما كان يعلمه للكهنة، وفهمت منه معنى الإله والمخلوقات.. ومعنى المعجزات.

«إنها إرادة الرب يا ليو، ربما أراد لك أمراً عظيماً ليس يعرفه سواه، فأصابك بالشلل تمهيداً لذلك الأمر، وأعطاك من معجزاته ما يصبرك على ابتلائه، ولتكون إشارةً لك وبشارةً منه» قال لي ذات ليلةٍ بعد أن تتبّعَ صوتَ خوار الثور الذي قضَّ مضجعه، فوجدني أبكي بحرقةٍ تحت تمثال البومة. أعادني بعد ذلك إلى فراشي، وهمسَ في أذني: «إياك أن تصدّق بأن بوسع ذلك الحجر الأصم سماعك، أو أنه قادرٌ على شفائك.. فلو كان أمره بيده، لأعان نفسهُ قبل أن يعين الناسَ.. وطار».

منذ تلك الليلة، كففتُ عن خداعه بحيلي التي كان يظنها معجزات.

بعد بضعة أسابيع بشّرني برونو بعد أن انتهى من دهني بالطحين بأن الأبَ ألفرد أخبرهُ بعزمه على اصطحابي إلى كاتدرائية «نوترو دام» في باريس، ليعرضني هناك على أعظم القساوسة وأمهر الأطباء.

كان عليّ هناك أن أعود إلى حيلي، لكي أضمن ألا أغادر باريس إلا على دراجتي التي طلبتُ من برونو أن يحضرها إلي.

عندما بلغنا أعتابَ الكاتدرائية، قرعتُ أجراسها، ولم أوقفها إلا بعد أن تفقدتُ وجوه جميع من كانوا باستقبالنا، ورأيتها مكسوةً بالاندهاش والذهول.

أدخلني الأبُ ألفرد على قداسة الكاردينال صباحَ اليوم التالي لوصولنا. كان قد علم بمعجزة الأجراس التي قرعت نفسَها عند قدومي. كنت جالساً على كرسيي المتحرك مطرقاً رأسي الحليق، يدفعني الأب ألفرد بأناةٍ وزهو، كمن يحملُ إلى قداسته ثيابَ المسيح.

فور أن توقفنا أمامه، وقبل انحناء الأب له بالتحية، رفعتُ وجهي ونظرتُ في عينيه المنتبهتين نظرةً خاشعة ثم دنوتُ بعينيّ إلى الصليب المعلق على صدره، بغيةَ هزّه ثم رفعه في الهواء.

لم أعِ شيئاً مما قال قداسته لي وللأب ألفرد؛ إذ كنتُ منشغلاً بلعن من صنعَ صليبَهُ من الذهب.

على أية حال، لم أكن بحاجةٍ إلى ممارسة الحيل واجتراح المعجزات أمامهم، فقد كان حبهم للأب ألفرد كفيلاً بحملهم على بذل قصارى جهدهم لقضاء حاجته، فلم يبق رجلُ دينٍ ابتداءً من الكاردينال نفسه إلا وصلى لأجلي وتضرع إلى الرب لخلاصي، ولم يبق طبيبٌ من مشاهير باريس إلا وعرضوني عليه، لكن حظي هناك لم يكن بأفضل منه في ديجون.. فبقيتُ قعيدَ الكرسيّ حبيسَ اليأس والألم.

في طريق عودتنا إلى ديجون مررنا ببرج إيفل، تمنيتُ لو أن بوسع يدي أن تلوح له، أو أن أطوف بدراجتي تحته، ولو لآخر مرةٍ في حياتي.

توفي الأبُ ألفرد بعد خمسة شهور على عودتنا من باريس، وتبعهُ برونو بعد عامين، فتولى الكاهن «وليام» أمرَ رعايتي من جديد، وتولى أيضاً مهمة دهني بالطحين بعد رحيل برونو. سألني غير مرةٍ عن سر الطحين والوشم الخشن فلم أجبه، لكنه لم يستطع لجم فضوله.

ذات يوم، بينما كان يفركُ جسدي بالماء والصابون، حاول اقتلاعَ الوشم بأظافره، رجوته أن يكفّ فتجاهلَ توسلاتي، صرختُ ناهياً فلم يستجب، أطرتُ دلواً حديدياً ثقيلاً في الهواء وهويتُ به على ظهره، فانكسر.

»كثيراً ما تساءلت متعجباً عن سر حب الأب ألفرد لك بهذا الشكل، وعن الذي رآه فيك غير هذا الشر البادي جلياً في عينيك، ولولا أن أوصاني بك قبل موته لما ترددتُ لحظةً بطردك من الكنيسة منذ اليوم الأول لرحيله. أما الآن وقد اقترفتَ ما اقترفت بحق الكاهن وليام فكدت تقتله أو تصيبه بالشلل لقاء تفانيه في رعايتك، فإني

آمرك بالرحيل عن كنيستنا هذه، وإياك والرجوع إليها أو حتى التفكير بالاقتراب من أسوارها، وإلا أحللتُ عليك وعلى هذا الشيطان القابع في عينيك سخط الرب.«

آثر الكاهن وليام إبقاء أمر معجزاتي سراً، فلم يخبرهم بحقيقة ما وقع بيننا وأدى إلى كسر ظهره، بل ادّعى بأني غضبتُ منه فجأةً في الحمام دون مبرر، فنطحتُه كالمجنون برأسي على صدره، فارتطم ظهره بقوةٍ بصنبور الاستحمام خلفه. لم يتردد الأب الذي كان قد تولى منصبَ الأب ألفرد في طردي، آمراً شماس الكنيسة بإيصالي إلى المكان الذي أريد.

طلبتُ منه أن يأخذني إلى تمثال صانع النبيذ، إذ كان أكثر ما اشتقتُ إليه خارج الكنيسة. كانت ظهيرة يوم أحد، فوجدنا الساحة مكتظةً بالناس، مكثنا أمام التمثال ساعةً كاملة، إلى أن تعب الشماس من الانتظار، فسألني عن المكان الذي أنوي الإقامة فيه ليوصلني إليه. لمستُ في صوته إشفاقاً كالذي رأيته في عيون الناس حولنا، فأفلتُّ الكرسيَّ من يديه ورحتُ أدور به حول التمثال بهياجٍ بين الناس، فاجتاحهم الهلع وتعالت صرخات النساء والأطفال، وصيحات الرجال: «شيطان.. إنه شَيطان.. لقد أفلت الشيطان من الشماس» أسعدتني رؤيةُ الرعب على وجوههم وتخبّطَهم في الساحة راكضين بجزع في شتى الاتجاهات، فتابعت قيادة الكرسي من شارعٍ إلى شارعٍ ناشراً الرعبَ في أنحاء المدينة، إلى أن خرجَت الشرطة في مطاردتي فدخلتُ مبنىً ولذتُ تحت درجه في العتمة.

تداولت نبأ الحادثة بعضُ الصحف المحلية، وزجّت في رواياتها عني الأكاذيب والأساطير، فقالوا بأني شيطانٌ قيّدته بومة الكنيسة بأصفاد غير مرئية، وسلمتني للأب ألفرد الذي وضعني بدوره على ذلك الكرسي المتحرك متصدياً بنفسه لمهمة حراستي كي لا أكسر القيدَ وأهرب، وأن الشماسَ ربما قد يكون باع نفسه للشيطان بعد موت الأب ألفرد في صفقةٍ ما – كما في الحكاية الألمانية عن الدكتور «فاوست» – فهرّبني من الكنيسة ليأخذني إلى تمثال صانع النبيذ الذي ربما تكون رؤوسُ الأسود الأربعة تحت قدميه رؤوسَ شياطين خلاصي من القيد. وادّعت بعض الصحف أيضاً أني جعلتُ الكرسي ذا العجلات يطير بي أمام عيون المارة، وتفننت بعضُها برسم صورةٍ تخيليةٍ لي قيل إنها مبنية على شهادات من رأوني، فصوروني بقرنين صغيرين ونابين أسودين كبيرين، وحاجبين كثيفين تقدحُ من تحتهما عينان مخيفتان.

كان من شأن تلك الأكاذيب أن تنشر المزيد من الهلع بين سكان ديجون، بل حتى في كنيسة «نوترو دام» نفسها، التي سارعت إلى إعلان براءتها مني في بيانٍ أصدرته، مشيرةً فيه إلى جهلها بحقيقة ما كان بيني وبين الأب ألفرد، دون أن تأتي على ذكر الشماس المسكين في بيانها ذاك، وتبرئته مما نُسب إليه.

كل هذه الأشياء علمتُ بها لاحقاً من الصحفي الذي لم يصدّق تلك الخرافات التي نشرتها الصحف، فخرج باحثاً عني في أرجاء المدينة، إلى أن عثر عليّ بعد أن دلته على مخبئي امرأةٌ رآني ابنها.

-ها هو الشيطان مختبئ تحت الدرج كقطة خائفة!

-لستُ خائفاً.

-ظننتك ستقول: لستُ شيطاناً.

-أحتاج الدخول إلى الحمام.

-انتظرني هنا، سأحضر من يساعدني على تهريبك، فالمدينة كلها تبحث عنك.

اصطحبني الصحفي الشاب إلى شقته، وقصصتُ عليه حكايتي.

-أرى الصدق في عينيك يا ليو، لكن ما تدعيه يتنافى مع العلم والمنطق، ولو كنتُ ممن يصدقون الخرافات لصدقتُ ما قالته الصحف، وما خرجتُ باحثاً عنك.
-لكنها الحقيقة، لم أكذب عليك في أي شيء.
-حسناً، هذا القلم مصنوعٌ من حديد، أرني كيف تسحبه من يدي بجاذبيتك.

كان ينوي حين خرج باحثاً عني أن يكتب تحقيقاً حول حقيقة أمري، لكنه بعد أن سمع حكايتي وصدّقها تراجع عن نيته تلك.

كان اسم ذلك الصحفي «زاك»، لم نتحدث كثيراً خلال شهور إقامتي الطويلة لديه، أو لنقل لم أتحدث أنا كثيراً إليه، إذ كنت أكتفي بالاستماع إلى أحاديثه كلما عاد من عمله. حدثني عن الفنون والحروب والأدب والسياسة والعلم والتاريخ، وكان أحياناً يقرأ علي مقالاته قبل نشرها لأخذِ رأيي فأجيبه دائماً: أظنه جيداً.

كان كل ما يخبرني به ويحدثني عنه جديداً عليّ، فكنتُ أستمع بدهشة الطفل الذي لا يعلم شيئاً بعد عن هذه الدنيا.

كانت لديه حبيبة تزوره في شقته. كثيراً ما كنتُ إلاحظها تختلسُ النظر إليّ متأملةً ربما صمتي، وقد حاولت غير مرةٍ إخراجي عن ذلك الصمت بتوجيه حديثها إليّ، الأمر الذي كان يربكني، ويجعلني غيرَ قادرٍ على النطق، فأشعرُ برغبةٍ في الهرب إلى الخارج، كما كنتُ أفعلُ حين كانت أم ماري تسألني عن حالي كلما زارتنا.

كانت فتاةً حمراء الوجه كثيرة اللهو والضحك متقدةً دائماً، كأن ناراً تجري في عروقها، وكانت تأوهاتها المستعرة تصلني أحياناً من وراء باب غرفة نومه، فتُثير في نفسي أحاسيس غريبة، لم أستطع فهمها.

لم يكن زاك يشبهها في شيء، ولا حتى في نظرته إليّ وإلى صمتي الذي لم يكن يزعجه، بل أظنه كان يتفهمه جيداً. وكنتُ أشعرُ برغبته الصادقة في انتشالي من مأساتي، ومساعدتي بكل الوسائل الممكنة لعلاجي، لكن دون أن تجدي جميع محاولاته في شيء، إلى أن كان ذات مساءٍ منكباً على كتابة مقال جديد، فوجدته فجأةً يلقي القلم من يده، وراح يذرع الغرفة واضعاً يديه في جيبيه محدقاً بالهواء من خلف زجاج نظارته، إلى أن التفت نحوي قائلاً بحماس: «هل جربتَ الزيت يا ليو؟».

مع كل جرعةٍ أخذ يصبها في جوفي، كانت مفاصلي تشتعل، فأعرفُ أن الأمر يجدي نفعاً، فأصرخُ طالباً المزيد، إلى أن تمكنتُ أخيراً من تحريك أطرافي. وصار بوسعي بعد شهورٍ من صبره معي، أن أسير بغير عكازين، وأن أحرّك يديّ وأصابعي كأي رجل سليم، كما تخلصتُ من رائحة الصدأ إلى الأبد.

بكى زاك لحظةَ الوداع، وعانقتني صديقته. لم أشعر بشيءٍ إزاء دمعه، أما حرارة جسدها فقد أضرمت النارَ في رأسي. ركبتُ الدراجة الجديدة التي اشتراها لي وانطلقتُ ليلاً قاصداً باريس، وقبل أن أغادر ديجون، تذكرتُ أمراً تمنيتُ كثيراً فعله خلال سنين عجزي. أسندتُ الدراجة بجانب القسطل، وتسلقته إلى أن بلغتُ سطح المبنى، ووقفت أمام ذلك الخزان الذي تسبب بمأساتي، ولكمته لكمةً بقي دويُّها يتردد في أذنيّ حتى خرجتُ من ديجون.

بينما كنت منطلقاً بأقصى سرعتي بمحاذاة نهر السين، تعثرت الدراجة بحجر وانقلبَت بي فكدتُ أن أسقط في النهر، تقطعت أنفاسي من الخوف وسرَت في عروقي رعشةٌ أرجفت قلبي. تخيلتُ نفسي أصارعُ الغرق ولا أصل إلى بر الأمانِ إلا وقد صدأت مفاصلي من جديد، فتركتُ الدراجة ملقاةً على الأرض وأطلقتُ ساقيّ للريح هارباً من النهر إلى أن غاب عن عينيّ. سرتُ بغير هدىً متتبعاً نداء الحديد لجسدي، إلى أن ارتميتُ خائرَ القوى على سكةٍ حديدية.

استيقظتُ على اهتزاز قضبان السكة إثر اقتراب قطارٍ قادم، وقفزتُ فوقه كما تقفزُ الجرادةُ بين حجرين. تمددتُ ملصقاً ظهري بسقفه مستعيناً بجاذبيتي، فاتحاً عينيّ للسماء، مفكراً بالأمر العظيم الذي أخبرني الأب ألفرد بأن الرب أراده لي.

بقيتُ أعواماً على تلك الحال متنقلاً على ظهور القطارات من قريةٍ إلى قرية ومن مدينةٍ لأخرى باحثاً عن ذلك الأمر العظيم.. دون أن أجد له أثراً.

إلى أن كنتُ مستلقياً ذات ليلةٍ على ظهر قطارٍ منصتاً لغنائه، أتأمل النجوم التي حفظتُ مواقعها عن ظهر قلب، فلفت انتباهي لمعانُ نجمٍ جديد. كان بريقهُ خافتاً، كقنديلٍ حملته امرأةٌ من بعيد في ليلةٍ ماطرة.

«أريدُ امرأةً» قلتُ لنفسي. تخيلتُ ماري امرأةً ناضجةً ترتدي الثياب الزاهية التي كانت ترتديها صديقة زاك، وتحدق في عينيّ بنظرتها التي كانت تربكني كلغز لا يقدر أستاذ الفيزياء على حله.. تسللت إلى أنفي رائحةُ شراب القيقب.. أغمضتُ عينيّ ودنوتُ من ثغرها الكرزي.. قبّلتها.. ارتخى سقفُ القطار تحت ظهري فغدا بطراوة القطن.. غصتُ بداخله.. شعرتُ بالغرق.. فتحتُ عينيّ مرتعباً، فرأيتُ المومس جاثمةً فوقي بنهديها الكبيرين تحاول انتزاع الوشم بمخالبها.. رفستها بكلتا قدميَّ فتطايرت برادةُ الوشم عن صدري، وهويتُ عن ظهر القطار.

فتحتُ عينيّ على حكةٍ تأكل جلدي فوجدتُني ملقىً في حقل قمح يابس، تجتاح أنفي رائحة الحنطة كلما هب النسيمُ حاكاً خدوشي ورضوضي برؤوس السنابل والعيدان.

ثم رأيتُ قنديلاً خافتَ الضوء يقتربُ من بعيد.

أبي !تعال إلى هنا بسرعة .وجدتُ رجلاً ملقىً على الأرض.

الريف الفرنسيFrench Countryside |

لم يكن لها عطرُ فم ماري ولا وجهُ أمي ولا اشتعالُ صديقة زاك، لكنها كانت قليلة الكلام مثلي، كثيرة التأمل كالأب ألفرد، فتزوّجتها بعد عامٍ من وقوعي في حقلهم.كانت فتاةً في الثامنة والعشرين اسمها «سيلڤا»، تسكن منزلاً ريفياً مع والديها وأخويها. أخبرتُهم بأني كنتُ كاهناً في ديجون، وأني هجرت الكنيسة واللاهوتية باحثاً عن حياةٍ جديدة، فصدقوني، كما صدّق أهلُ القرية كل ما اختلقته، وأطلقوا عليّ لقبَ الكاهن.

في تلك القرية تعرفتُ على معنى أن تعيش في مجتمع وأن تكون جزءاً منه، تشاركه أفراحه وأتراحه، تتابع أخبار الناس من حولك ويتابعون أخبارك، يهنئونك ويسعدون لأجلك ويحزنون لحزنك. لم أبادلهم المشاعر نفسها في قرارة قلبي، لكني اضطررت لافتعالها.. تماماً كما كنت أفتعلُ السعادة والانتشاء عند معاشرة سيلڤا، وكما افتعلتُ السعادة حين أنجبَت كلاً من ابنتيّ ولعبتُ معهما دورَ الأب المحب، فكنتُ أقلد ما يفعله الآباء من حولي مع أبنائهم.. ربما كنتُ ممثلاً بارعاً.. أو ربما كانت الأبوةُ نفسُها لا تحتملُ غيرَ التصديق من الأبناء. لكن الأرضَ لم تصدّقني، لم تصدّق تربتُها يديَّ الباردتين، لم تصدق الشتلاتُ التي كنتُ أغرسها عرَقي حين كان ينقطرُ على أوراقها عابقاً برائحة الحديد التي لا تشبه رائحة الملح في جلود الفلاحين، حتى الطيورُ التي كانت تغزو المحاصيل لم تصدق إنسانيتي، فكانت تستريح على كتفيّ كما تستريحُ على أسلاك الكهرباء.

مرت عشرةُ أعوامٍ على زواجي من سيلڤا وعملي في حقل ذويها، أستطعتُ خلالها جمع المال اللازم، فاشتريتُ أرضاً بنيت فيها منزلاً صغيراً، وزرعتُ حقلاً.

«عليك أن تنصب فزاعةً هنا يا ليو» قالت سيلڤا ذات صباح بينما كانت تقطفُ بجانبي محصول الطماطم، فقفز إلى ذهني من فوره تمثالُ صانع النبيذ. «سأصنع فزاعةً تشبهه» حدّثتُ نفسي بسعادةٍ ورحتُ أجمعُ ما في القرية من خردواتٍ حديدية، إلى أن صارت لدي كومةٌ كبيرة كافية لصنع فزاعةٍ بحجمه.

لم تكن النتيجة بجمال ذلك التمثال، بل إنها حتى لم تكن تشبهه في شيء سوى بيديها المتخصرتين، واللتين كانتا عبارةً عن قضيبين حديديين مغروسين في مصفوفتين من علب البيرة. بينما صنعتُ الساقين من مواسير صدئة، ثبتُّها بالأرض بكتلةٍ ثقيلة من الإسمنت حاولتُ أن تكون مرتفعةً بعض الشيء مقلداً المنصة التي كان يقف عليها تمثالُ ديجون. فيما صنعتُ بقية الجسد من نسيج صواميل ومسننات وما تيسر من بقايا الآلات.. أما الرأس، فكان شوكةَ مذراة.

لم يبق أحدٌ في القرية إلا وسخر من فزاعتي، بدءاً من سيلڤا وأهلها وانتهاءً بكاهن كنيسة القرية الشاب، الذي كانت غيرته مني تزدادُ يوماً بعد يوم مذ أطلق عليّ أهلُ القرية لقب الكاهن وصار بعضهم يقصدني للاستشارة في الشئون الدينية، وطلب الموعظة أو حتى للاعتراف.

حاولتُ أن أبادل الكاهن حقده، لكني لم أفلح بهذا الشعور أيضاً إذ كان الجميعُ سواسيةً لدي، المحب والكاره، القريب والبعيد، الغنيِ والفقير، الغبي والذكي، العاهرة والعفيفة، الصغير والكبير، الجميلة والقبيحة.. كانت سيلڤا قبيحةً، كنت أرى قبحها بوضوح دون حاجتي إلى سماع تهامس نساء القرية حول استغرابهن زواجي منها، لكن قبحها ذاك لم يحرك بداخلي أي نفورٍ منها كما لم يكن يحرِّك جمالُ حِسان القرية قلبي أو يستثير شهوتي.. الأنثى الوحيدة التي جذبتني وبدأت تحرك في قلبي المحبة يوماً بعد يوم كانت.. الفزاعة الحديدية.

كان الأمرُ في بدايته مجرد إعجابٍ بكائنٍ شكّلته بيديّ وافتتنتُ بجمال تكوينه، فأحرص كل يوم على تفقدها وإعادة تثبيت ما ينفلتُ منها، وتنظيفها بعنايةٍ وأناة كما كان يفعل الأب ألفرد حين كان ينظف تمثال المسيح، مستذكراً صوته العذب.. وخيوط الضوء الملونة.

ذات صباح، بينما كنت أمسح الندى عن ذراعيها سرى في دمي شعورٌ غريب، كما لو أنها أرسلت أحاسيسها إليّ عبر يديّ، ففقدتُ السيطرة على جاذبيتي التي كنتُ قد حبستها منذ أول يومٍ لي في القرية، فاهتزت علبُ البيرة في ذراعيها وراحت تقرقعُ بقوةٍ كأجراس قطيع ماشيةٍ تهرول في المرعى، ولم أستطع إسكانها إلا بابتعادي عنها.

لم أعد أجرؤ على الاقتراب منها، فاكتفيتُ بتفقدها من بعيد كلما خرجتُ إلى الحقل، كانت تناديني بصوتٍ يشبه صوتَ ماري الذي لم أسمعه يوماً. لم تخفني نداءاتها.. أخافتني عودتي إلى حياة المغناطيس.

لم أصمد طويلاً أمام فتنة نداءاتها، فمشيتُ إليها ذات يوم قُبيل المغيب، إلى أن وقفتُ قبالتها على بعد بضع خطوات. اهتزّت علبُ ذراعيها قليلاً ثم سكنت من تلقاء نفسها. اقتربتُ بهدوء وجلستُ بجانبها على القاعدة الإسمنتية مسنداً رأسي إلى ساقها الباردة.. وأغمضتُ عينيّ.

«ما اسمك؟» قالت بصوتها الطفوليّ.

«ليتني أستطيع إجابتك» قلتُ في سري متنهداً.

«ألستَ قادراً على سماعي أيها المغناطيس؟» فتحتُ عينيّ باندهاش ونظرتُ إلى رأسها فوقي: «بلى أسمعك» قلت، لكن الحروف من فمي خرجت على شكل طنين.

«فأخبرني باسمك إذاً».

نهضتُ مفزوعاً من هول السعادة.

«إنك تسمعينني! أنا.. إنني قادرٌ.. أستطيع التحدث إليكِ!».

«بالطبع تستطيع. ألم تحدّث الحديد من قبل؟!».

أسميتها ماري، وصرتُ كظلها الذي لا يفارقها إلا وقتَ النوم والعمل. راقصتها كثيراً.. تبادلنا القبل.. ضحكنا وبكينا معاً.. واستمعنا في المساءات الهادئة إلى غناء القطارات المارةِ بجانب الحقل.

لم أكن أعلم أن عليّ إخفاء أمر علاقتي تلك عن سيلڤا، وأن شعوراً اسمه الغيرة ينتاب النساء، فبعد كل تلك السنين التي عشتها معها، ها هي تصارحني بذلك الشعور تجاه ماري. لم أفهم ما تعنيه، لكن فهمت أنه شيءٌ بدأ يحفرُ عميقاً في قلبها، غير أني لم أكترث وبقيتُ على دأبي في زيارة ماري كل يوم والجلوس معها لساعات، الأمر الذي زرع الشك ربما في قلبها فأسرّت به لكاهن الكنيسة، فأشار عليها بإتلاف الفزاعة غريبة الشكل تلك.. ملمحاً بخبثٍ إلى احتمال أن يكون قد مسّني شيطانٌ يسكنُها.

كان للغربان الحائمة فوقي نعيبٌ أشدُّ سواداً من ريشها، حين جثوتُ على ركبتيّ غارساً في الوحل أصابعي.. تحيطُ بي من كل صوب أشلاءُ ماري.

لم أبكِ، لكن جسدي المرتعش بكاها.. سمعتُ نواحهُ عليها.. ورأيتُ عتمته.

جمعتُ أشلاءها، وسرتُ بها نحو السكة الحديدية، إلى المكان الذي سقطتُ فيه عن ظهر القطار.. ودفنتُها هناك.

لم يكن قد تبقى لي منها خارج القبر سوى ساقٍ واحدة ظلت مغروسةً بالإسمنت، ورأسِها الذي عدتُ به إلى المنزل.

حين دخلتُ المنزلَ حاملاً رأس ماري، كانت سيلڤا جالسةً على كرسيها بسكينةِ من استسلم لحكم إعدامه، فأطرقَ رأسه بانتظار نزول المقصلة.

لم أكلمها، دخلتُ غرفةَ النوم دون أن ألتفت إليها، أخرجت من مخبأ في خزانة ملابسي علبةً معدنيةً صغيرة، كنتُ قد خبأتُ فيها برادة الوشم الذي نزعته عن صدري قُبيل زواجي منها، ثم دخلتُ الحمام ووضعتُ الوشم على صدري من جديد أمام المرآة بعد أن غسلتُ رأس ماري من الوحل، ثم استلقيتُ في حوض الاستحمام الجاف حاضناً رأس حبيبتي إلى أن نمت.

استيقظت سيلڤا صباحاً على صوت الطرق، فوجدتني أعلق الرأس على الجدار المقابل لكرسيها الذي اعتادت الجلوس عليه.

مرَّ شهرٌ دون أن أكلمها أو أشاركها الطعامَ والسرير. بتُّ أتعمد البقاء خارج المنزل ما استطعت، فأغادره منذ الصباح الباكر ولا أعود إليه إلا وقت النوم.

حاولَت غير مرةٍ خلال ذلك الشهر أن تصالحني، فكنتُ أصدها دائماً بنظرةٍ لا أعرف كيف كان شكلها.. لكنها كانت تبكيها كلما رأتها.

أما ابنتاي فصرتُ أكتفي بهز رأسي بوجوم كلما تحدثتا إليّ، وإذا حاولت إحداهما ملاعبتي أو الارتماء في حضني صددتُها كما تُصَدُّ الكلابُ الجرباء، فتهرعُ إلى أمها باكيةً، الأمر الذي ما عادت سيلڤا قادرةً على تحمُّله فالتجأَت من جديد إلى كاهن القرية شاكيةً تبدُّل حالي مذ حطّمَت فزاعتي، وبأن الفتاتين باتتا تخشياني، وأخبرَته بأمر شوكة المذراة التي علقتُها في المنزل، وعن قبر ماري الذي واظبتُ على زيارته كل يوم، وجلوسي بالساعات تحت وابل الأمطار عند تلك الماسورة الصدئة التي كانت قد عجزَت عن اقتلاعها عندما حطّمَت الفزاعة،كما أخبرتهُ بأنها لمحت على صدري وشماً غريباً لم يكن مرسوماً من قبل، فانطلق الكاهن إلى ديجون.. واعداً سيلڤا باكتشاف سري.

فور عودته إلى القرية طلبني إلى كنيسته، وما إن دخلتُ
عليه حتى صاح مبتسماً بخبث:
«ها قد أطلَّ أخيراً شيطانُ الكرسي ذي العجلات».

تسمّرتُ في مكاني، واهتزّ وشم المغناطيس على صدري.. أغلقت قبضتي الحديدية وهممتُ أن ألكم وجهه.. ثم تراجعت. تظاهرتُ بعدم معرفة ما يقصده، فواجهني بكل ما سمعه من سيلڤا حول تصرفاتي والوشم الشيطاني –كما أسماه– الذي رأتهُ على صدري، وبالذي سمعه من كنيسة ديجون حول حقيقتي، أنكرتُ أن أكون ذلك الشخص الذي أخبروه عنه في الكنيسة مُحتجاً بأني كما يرى لستُ كسيحاً فلم يصدقني.. أو ربما لم يرغب بتصديقي بعد أن سنحت له فرصةٌ عظيمةٌ كتلك للتخلص مني.

في اليوم التالي، رأيتُ في عينيْ سيلڤا نظرةً مسكونةً بالخوف والبغض، وكانت قد أرسلت الفتاتين إلى بيت أهلها، فأدركتُ أنه أخبرها. غادرتُ المنزل وجلستُ تحت ندف الثلج بجانب ساق ماري، لا أرى في الأرض المكسوة بالبياض سوى رمادِ حقلٍ محروق.. إلى أن جاءني صوتُ سيلڤا مرتجفاً من ورائي، وقد غرست فوهةَ بندقية الصيد في ظهري:

«مُت أيها الشيطان اللعين، أو ارحل الآن عائداً إلى جحيمك».

لم ألتفت إليها، قطعتُ الحقلَ نحو السكة الحديدية، وسرتُ بمحاذاتها إلى أن وصلتُ إلى قبر ماري. ودّعتُها، وأكملتُ سيري حتى خرجتُ من القرية، وقفزتُ فوق ظهر قطارٍ مرَّ مسرعاً بجانبي.

غرب فرنساWestern France |

«قد تكون سيلقا محقةً، ربما كنتُ بالفعل شيطاناً كما قالت الصحف.. فتلك التي ظنها الأبُ ألفرد معجزاتٍ لم تكن سوى لعنات.. لو كان محقاً بشأني لتحقّق الأمرُ العظيم الذي أهدرتُ سنين حياتي بانتظاره والبحث عنه.. أنا شيطانٌ ملعون.. وعليّ الرجوعُ إلى جحيمي» حدّثتُ نفسي، وبدأتُ أبحثُ عن الجحيم.

تذكرتُ قول الأب ألفرد بأن الشياطين مقيدةٌ بأغلالٍ أبدية تحت الظلام، فمضيتُ أبحث عن جحيمي في الأماكن المعتمة. بحثتُ تحت الأرض.. مشيتُ في المجارير، سألتُ قساطلها إن كانت تعرف الطريق إليه.. بحثتُ فوق الأرض، في المنازل المهجورة، سألتُ حديد عِمادها عن الشياطين المصفّدة.. سألتُ البواخر في الموانئ عما إذا رأت الجحيم مُخبّأً تحت ظلمات المحيط.. بحثتُ عنه تحت سقف الليل.. في عتمة الغابات والكهوف.. بحثتُ عنه في الكتب.. أمضيتُ أعواماً أفتشُ دون يأسٍ أو كلل عن ذلك الجحيم.. فلم أجد إلا جحيمَ عذابي.

«لو تركتُ سيلقا تقتلني، لربما أرسلتني إليه ووفّرت عليّ كل هذا العناء» غمغمتُ بيأسٍ بينما أراقب جنازةً من خلف سور مقبرة.

-ألك عزيزٌ عندنا؟
-ماذا؟
-أعني هل ثمة أحد من أحبتك مدفونٌ هنا؟
-لا.
-فما الذي تفعله عندك كل يوم؟
-وما شأنك أنت؟
-أنا حارس المقبرة.
-أتحرسُ الأموات؟
-أحرس قبورهم.
-ولماذا تحرسها؟ أتخشون هروبهم؟
-ها ها ها .من ذلك الأحمق الذي سيفكر بالرجوع إلى الحياة بعد أن يذوق راحة الموت؟!
-وما أدراك بأن الموت مريح؟ هل جربته؟
-جربتُ الحياة..
-هل أجِدُ لي عملاً لديك هنا؟

عملتُ بستانياً في تلك المقبرة، كان اسمُ ذلك الحارس «رولان»، وكان ربما في السبعين من عمره.

«المكوث بين الموتى لسنواتٍ طوال يُميت اللسان، فما الذي أماتَ لسانك أنت؟» قال بعد مُضي ثلاثة أسابيع من عملي عنده، متفرساً وجهي الشاحب بارتياب بعينيه الغائرتين خلف أنفه الكبير. كنت حينها واقفاً فوق سلمٍ قصير، أشذِّبُ شجرة كستناء صغيرة. أربكني سؤاله، فلم أدرِ بما أجيب. هل أخبره بأني قليلُ الكلام مع البشر وحسب؟ وأني كنت قُبيل قدومه أحدّثُ المقصَّ عمّا رأيته في رحلة البحث عن الجحيم؟ وهل أصارحه بأن أسوأ ما في هذه المقبرة بالنسبةِ إلي هو وجودُه كإنسانٍ حي بين هؤلاء الموتى؟

فقدتُ السيطرة على نفسي من فرط ارتباكي، فراح مقص التشذيب يعمل بسرعة المقصّات الآلية في يدي، جحظت عيناه وتراجع إلى الوراء كمن خشي أن يقفز عليه ويأكله، استعدتُ سيطرتي على المقص سريعاً.. والتفتُّ نحوهُ مصطنعاً ابتسامة ود: «أمهلني بعض الوقت يا سيد رولان، فأنا قليل الكلام مع من لم أعتد عليهم بعد». أظنه لم يصدّق ما رأته عيناه، واعتقدَ أنه هذيان شيخوخة، فمرّت الحادثة بسلام، غير أني عزمت من لحظتها على أن أكون أكثر حرصاً، فلم أعد أتحدث إلى أيّ من حديد المقبرة إلا إذا غادرها رولان لقضاء حاجةٍ ما في البلدة، كما صرتُ أرغمُ نفسي على تبادل الأحاديث معه تجنباً لشكوكه. ولم يكن التحدث إليه بذلك السوء الذي ظننته، إذ كان قليل الكلام أصلاً، أو ميت اللسان على حد تعبيره، وأظنه أيضاً كان ميت القلب مثلي، إذ لم أره يبتسم مرةً واحدة طوال شهور عملي معه، حتى حين كان يقول لي النكات، لم يكن يضحك، ولم يكن يزعجه عدم ضحكي.

«إلى أين تظنها الآن ذاهبة؟» سألته بعد انتهاء جنازة امرأةٍ عجوز.

«وما أدراني!.. ربما إلى الجحيم» أجاب بغضب بينما يبحث عن الولاعة في جيوب معطفه.

«أتعلم أين يكون؟» سألته بما يشبه الهمس.

أشعل سيجارةً وجلس بأناةٍ على كرسيه كمن يخشى أن يُسحب فجأةً من تحته، وقال بعد لحظة شرود: «الجحيم؟».

-أجل، أتُراه في السماء؟

-ولماذا تسأل؟ أتفكر بالذهاب إليه؟

-بل أسألك لأتعلم.

-لا أدري يا ليو ..صدقاً لا أدري، لكن لا أظنه في السماء ..فهي محجوزةٌ للجنة.

-هل في الجنة حديد؟..

مرّت الشهورُ ثقيلةً في المقبرة، ثقلَ الحياة بين القبور. كنتُ أحياناً إذا دخلت جنازةُ طفلةٍ أو طفل، أرى ماري الصغيرةَ بفستانها الأخضر المدمّى، جالسةً على حافة التابوت مدليةً ساقيها المهشّمتين.. تلوّح لي بيدها المعفّرة بتراب الأنقاض. أما ماري الحديدية فلم أر طيفها إلا عندما حلّت ليلةُ الميلاد. كانت ليلةً شديدة البرد، غزيرة الثلج، وكنتُ وحدي في المقبرة، إذ كان رولان في ستراسبورغ يحتفل بالعيد مع ابنته وأحفاده.

وقفتُ خلف النافذة أراقب تساقط الثلج على القبور، مستذكراً قبر ماري الذي كان مكتسياً بالثلج حين ودّعتها وداعي الأخير، فوجدتُني من تلك النافذة أطل على منزلي.. رأيتُ سيلڤا جالسةً على كرسيها مُحدقةً ببُغض برأس ماري المعلق على الجدار، كان يتأرجح بسكينةٍ كالبندول، منشداً بصوتها الطفوليّ، أغاني العيد.

استيقظتُ في الصباح على صوت ماري تهمسُ في أذني بخوف: «انهض يا ليو، لقد أتوا» مشيتُ نحو النافذة بقدمين راجفتين، وأزحتُ طرف الستارة. كانت المقبرة مكسوةً بالثلج، فبدت شواهدُ القبور أشباحَ جُندٍ اصطفوا في ساحة القتال، تلفُّ أرجلَهم سحائبُ دخانٍ بيضاء.

رأيتهم يتقدمون نحوي..كانوا يمشون ببطءٍ شديد كمن أثقل كواهلهم العتادُ وأضناهم طولُ المسير.. أو كمن ينتظرون من قائدهم.. صيحة الهجوم.

أخذ خوفي من تلك الأشباح يتزايد يوماً إثر يوم.. صرتُ أسمع صيحة الهجوم من قائدهم.. وأراهم يندفعون نحوي باهتياج مُشهرين حِرابَ بنادقهم وينقضّون عليّ ليقطّعوني، كما قطّعت سيلڤا

حبيبتي ماري.

كثيراً ما استيقظ رولان على صوت صراخي ليجدني متكوراً أرتجف تحت النافذة. لم يسألني مرةً ما الخطب، كان يكتفي بمناولتي كأس ماءٍ ثم يعود إلى نومه.. إلى أن استيقظ مفزوعاً ذات ليلةٍ على دويّ انفجار، فوجدني واقفاً وسط الغرفة أتصبّبُ عرقاً أمام النافذة المحطمة.. تعصفُ منها ريحٌ شديدةُ البرد.. فيما كان تلفازه منغرساً في الثلج، على مبعدةٍ من المسكن.. كقذيفةٍ كبيرةٍ سوداء.

رممنا النافذة معاً بألواح خشبية، وفي الصباح بعد أن تناولنا طعام الإفطار صامتيْن.. طلب مني بهدوءٍ أن أغادر المكان.

سومور – فرنساSaumur-France |

بعد أن طُردتُ حتى من بين الأموات، همتُ على وجهي بين البلدات المحيطة كأي رجلٍ شريد، إلى أن وصلتُ إلى «سومور». وبينما كنتُ أسيرُ في شوارعها مررتُ أمام مبنىً كبير، فسمعتُ منه نشيداً اخترقني لحنه كسيلٍ من الرصاص.. إنه نشيدٌ كنت أسمعه في طفولتي من الجنود الإنجليز العائدين من الحرب.. لكنه الآن بصوت الحديد!

كان ذلك المبنى متحف الدبابات «Musée des Blindés».

-ليو، استيقظ يا حبيبي .انظر ما الذي أنزلته لنا السماء هذا الصباح!
-ما هذا؟
-إنها رسالةٌ من والدك !هيا انهض، قلتُ لخالك لن يقرأها لي أحدٌ غير ليو.

كانت المرةَ الأولى التي أرى فيها كلاماً بخط يده، كان خطاً رديئاً يشبه صوته حين كان يغضب، فقرأتُ الرسالة بما يشبه الصراخ.. الأمر الذي أفسد على أمي متعتها بكلام الغزل فزجرتني موبخةً: «لماذا تصرخ هكذا يا ولد؟ أعِد آخر جملةٍ بصوتٍ منخفض، يليقُ بتعب الجنود».

بعد أن انتهيتُ من قراءتها، سحبَتها من يدي بفرحةٍ غامرة وقالت بينما تعيدها إلى الظرف: «عليك أن تتدرب على القراءة بشكل أفضل، لا أريد سماع الرسالة المقبلة بنفس هذا السوء».

وتدربتُ فعلاً إلى أن أفرحتها قراءتي.. لكن الرسالة المقبلة، لم تصل يوماً.

حين سمعتُ غناءَ الدبابات الإنجليزية تذكرتُ ما قاله أبي في رسالته بأنهم وضعوه في كتيبة دبابات، فدخلت المتحف من فوري، أملاً بأن أجد بين دباباته واحدةً قد التقته خلال الحرب.

مررتُ على جميع ما في المتحف من دبابات الحرب العالمية الثانية، فلم أذر دبابةً إلا وسألتها عنه، حتى الدبابات الألمانية التي أرعبتني رؤيتها، تجاسرتُ وسألتها عنه.. غير أني لم أجد بينها من سمعَت باسمه. شعرتُ بخيبةٍ موجعة، تشبه خيبة الأمهات حين يسألن الجنود العائدين عن أبنائهن. وقبل أن أغادر المتحف، عدتُ إلى الدبابة الوحيدة التي تجاهلتني ولم تجب عن سؤالي، رفعتُ قبضتي لألكمها، فحطّت عليها بما يشبه نكزة العتاب على صدر صديق. أسندتُ جبيني على جنبها، وهمست لها: «أعلم أنكِ بلا أبٍ وأم، وأنكِ لا تدركين ما معنى أن يحاولَ المرءُ جاهداً تذكرَ ملامحَ أبيه فلا يستطيع.. يحاولُ ثانيةً وثالثةً وعاشرة.. يحاولُ ألف مرةٍ دون جدوى.. يستحث ذاكرته.. يستدعي إليها كل المشاهد التي جمعتهما.. فيراها بوضوح كأنها تحدث من جديدٍ أمام عينيه.. لكن وجه أبيه يظلُّ مشوشاً بغير ملامح.. وهكذا إلى أن يستبد به التعب.. فيُحيل أباه بداخلهِ إلى عدم كي يستريح.. ثم بعد أن يصدق كذبته.. تطلُّ عليه من البعيد يدٌ تلوِّح كاليقين: أنا والدك.. لستُ عدماً.

لو كنتِ تدركين معنى كل هذا، لما تجاهلتِ سؤالي بهذه القسوة».

-ما رقمه العسكري؟
-ماذا؟!
-ما رقم والدك العسكري؟
-لا أعرفه.
-فما اسمه؟
-رالف ج.أتكنسون

-أجل، عرفته.
-أحقاً تعرفينه؟!
-حق المعرفة.
-ما الذي تعرفينه عنه؟ كيف كان شكله؟
-سيغلقون الأبواب بعد قليل، عُد غداً صباحاً لكن تعال باكراً قبل أن يزدحم المكان بالزوار.

عدتُ صباح اليوم التالي قبل فتح أبواب المتحف بساعتين، وجلستُ منتظراً أمام البوابة، أراجعُ الأسئلة التي سهرتُ على تحضيرها في رأسي.. كيف كان شكله؟.. هل كان يشبهني؟.. هل كان يذكرني أمام رفاقه؟.. هل كان يحب أمي حقاً؟.. هل كانت تصله رسائلها؟.. أكان بطلاً؟.. هل نجا؟

حثثتُ الخطوَ إليها فورَ فتح البوابة، وسألتها بلهفةٍ: «هل كان يكلم الحديد؟».

عثرتُ على عملٍ في مصنع خمورٍ في البلدة، واستأجرتُ غرفةً قُرب المتحف، ورحتُ أزورها كل يوم لتحدثني عن أبي.. عما كان يقوله لرفاقه عني.. عن بطولاته.. عن تمنيها لو كان باستطاعتها أن تكلمه لتخبره بمدى إعجابها بشجاعته.. حكاياتٌ وذكرياتٌ كثيرة.. بتُّ أنتظر استراحات الغداء بلهفةٍ لأزورها وأسمع المزيد.. وبلهفةٍ أكبر، أنتظرُ عطل نهاية الأسبوع، لأمضي معها النهار بأكمله.

أسميتها «سنتي».. كانت دبابةً إنجليزية من طراز سنتور «Tank–Centaur» وهي من الدبابات التي شاركت في عملية جود وود «Goodwood» في النورمندي شمال فرنسا. وقد روت لي تفاصيلَ تلك العملية، ودورَ أبي فيها.

مع مرور الأيام بدأ ما في جعبتها من حكاياتٍ عن أبي بالنفاد، كانت قد أخبرتني عنه كل شيءٍ تقريباً، وأجابت عن كل ما خطر ببالي من أسئلةٍ حوله، إلى أن جاء وقتٌ صار بوسعي عنده أن أكف عن زيارتها إذ لم يعد لديها ما تخبرني به عن أبي. لكن علاقتنا حينها كانت قد تجاوزت تلك الغاية، إذ أصبحنا صديقين حقيقيين.. كلانا ينتظر موعدَ الزيارة بلهفة، وكلانا يخبئ للآخر أحاديث جديدة.



سنتي في متحف الدبابات – سومور Centy at Saumur Tank Museum

أخبرتها بقصتي كاملةً كما أخبرك بها الآن، استغربَت كرهي للبشر وأخبرتني أن أكثر ما أفرحها بصداقتي أني إنسان. أخبرتني كم تمنت طوال تلك السنين التي مرت عليها بعد انتهاء الحرب أن تجدَ من يحدثها عن السلم، عن حياة من لم يحملوا السلاحَ يوماً، عن أطفالهم، عن شكل بيوتهم من الداخل، عن مدارسهم ومصانعهم وشكل موائدهم، عن ممارسة الغرام.. عن تلك الأشياء الجميلة التي رأت جنوداً أشدّاء يبكون كلما تذكروها.

حدثتها عن كل ذاك كمن يتحدث عن أشياء سمع بوجودها لكنهُ لم يعشها. لم يكن هذا الذي تبحثُ عنه، كانت تريد أن ترى في عينيّ ما كنت أستشعره في صوتها من شغف وهي تحدثني عن المعارك، ولأنني خشيتُ خسارتها، عدتُ إلى التمثيل كما فعلتُ في قرية سيلقا.. فصارت ترى في عينيّ وتسمع في نبرةِ صوتي روح الإنسان.. روح الرجل الذي تبهجه رؤية الأطفال والزهور، ويشتهي الطعام والنبيذَ والنساء.

بعد سنتين، توصلنا إلى طريقةٍ تمكننا أخيراً من السهر سوياً. اشتريتُ جهاز اتصال عسكريّ قديم، شبكته على موجة جهاز الاتصال المثبت داخلها، فصرتُ قادراً على التحدثِ إليها ليلاً من فراشي.

كان للتحدث إليها تحت دفء الفراش في ليالي الشتاء طعمٌ مختلف.. طعمٌ أحال صداقتنا مع حلول الربيع إلى حب.. وتزوجنا.

-ماذا؟ !تزوجت الدبابة؟

-أجل تزوجتها.

-كيف تزوجتها؟ ..آسف ..أعني ..أعني كيف تزوجتها؟

-طلبتُ يدها للزواج فوافقت.

كان من بين العمال في مصنع النبيذ شابٌ مكسيكي، كان لطيفاً معي ويحبُّ مساعدتي، فطلبتُ منه أن يحضر لي كل ما يمكنه العثور عليه من خردواتٍ حديدية، شريطة أن تكون كلُّ واحدة بحجم كف اليد، وأن تكون قابلةً للتعليق في جنزير، ففاجأني في اليوم التالي بصندوقٍ خشبي ممتلئ بما طلبتُه.

-من أين أحضرتها بهذه السرعة؟

-من ساحة الخردوات.

-ساحة ماذا؟ !هل ثمة مكان بهذا الاسم هنا؟

-أجل، هناك ساحاتٌ صغيرة مخصصة لبيع الخردوات.

صنعتُ من تلك الخردوات خاتماً كبيراً علقتهُ حول سبطانة «سنتي» حين وافقت على طلب الزواج، وتصورت معها بينما ترتديه، ثم أعدته من جديد إلى المنزل.

دام زواجنا لسنوات، كانت أسعدَ سنين حياتي.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه بأن إدارة المتحف قررت أن تشركها لأول مرةٍ في مهرجان العرض العسكري الذي يقامُ كل عام، والذي طالما كانت تحدثني عن تمنيها المشاركة فيه. كان هذا في صيف عام 2008. سعدتُ كثيراً لأجلها وارتديت بدلةً لأول مرةٍ في حياتي لحضور ذلك العرض. كانت أجملهن، وأكثرهن مهابةً وبهاءَ مشية. لم أكن قد رأيتها تسيرُ من قبل، فلم أهدأ للحظةٍ واحدة طوال فترة العرض، ظللت واقفاً ألوّح لها كالمجنون بكلتا يديّ، وأنشدتُ لها من المدرجات ذلك النشيد الذي سمعتها تغنيه مع صديقاتها يوم التقينا.

اتصلتُ بها ليلاً بعد أن عادت إلى المتحف، فأخبرتني عن حجم سعادتها، ثم قالت قبل أن تنام: «إنك أعظم وأجمل إنسانٍ في هذه الدنيا».

لستُ إنساناً! كيف أُفهمها بأني لستُ إنساناً؟ أنا مغناطيس.. أنا كائنٌ حديديٌّ مثلها.. لا مجرّد إنسان!

لم أذهب إلى العمل صباح اليوم التالي، انتظرتُ بفارغ الصبر موعد فتح المتحف وذهبتُ إليها.

» -سنتي«، هناك سرٌّ أودُّ إخباركِ به.

-ما هو يا ليو؟ لقد أقلقتني.

-أنا لستُ إنساناً .أعني لستُ مثلهم في شيءٍ سوى هيئتهم، لا أشعر بما يشعرون ولا أكره ما يكرهون ولا أشتهي ما يشتهون، يسعدني غير الذي يسعدهم ويغضبني غير الذي يغضبهم .أتذكرين أول تعارفنا حين رويتُ لكِ قصتي مع الحديد والمغناطيس وكرهي للبشر؟ لم أزل كما كنت، لم أتغير يوماً كما أوهمتك، خدعتكِ كي لا أخسرك ..خدعتكِ كي أريكِ بي ما تحبين رؤيته.

-ولماذا تخبرني الآن بهذا بعد كل تلك السنين يا ليو؟ لماذا لم تستمر بخداعي ما دام الأمر يعجبني وما دمت سعيدةً به؟ ما الذي جعلك تقرر فجأةً أن تفسد عليّ سعادتي؟!

-لقد تعبت، تعبتُ من حبك للإنسان الذي ليس بداخلي أصلاً، أنا مغناطيسٌ يا سنتي !مغناطيس .أريدك أن تحبيني كمغناطيس وحسب.

-حسناً يا ليو .وأنا أيضاً عليّ إذاً أن أصارحك بأمر خبأته عنك كل تلك السنين.

-أي أمر؟!

-إنه والدك ..أنا لا أعرفه ..ولم أسمع باسمه يوماً سوى منك.

كنت – إنكلترا Kent-England |

كان سائقُ التاكسي يطاردُ الأغاني بمؤشر المذياع المتقلب في يده، بينما كانت تقلّبني على جمر الألم يدُ السنين الماضيات من عمري.

كانت السماءُ داكنةً وقريبةً جداً، كأنها نزلت إلي لتصفعني بكفها السوداء، كما صفعتني «سنتي» فأيقظتني بغتةً من ذلك الحلم الجميل.

أطل قوس قزح من خلف جبلٍ بعيد، لكنه ما لبث أن اختفى من جديد.. كم يشبه قوسُ الألوانِ هذا سعادتي.. فهو يطل فجأةً دون أن تنتظره، ويختفي فجأةً دون أن يبقى لديك منه سوى أشباح ذكرى، وغصةٍ في القلب أن ليتني ما علمتُ بأنك ممكنُ الحدوث.

«هاستينغز 10 كم».

انقبض قلبي فور قراءة اللافتة، وارتعش وشمُ البرادة على صدري، وشعرتُ بحرقةٍ في عينيّ، تشوّشَ بث المذياع، نقّل السائق بين المحطات لاعناً رداءة الطقس دون أن يفلح في العثور على واحدةٍ لم يطلها التشويش.. تحوّلَ صوتُ التشويش إلى طنين.. بدأ الطنينُ يعلو ويعلو حتى غدا أزيزَ طائراتٍ حربية.. دسستُ رأسي بين ذراعيّ وصرخت بالسائق متوسلاً أن يتوقف.

كانت تفصلنا بضعُ مئات الأمتار عن هاستينغز حين ترجلتُ من المركبة مذعوراً، وتقيأت على جانب الطريق.

طلبتُ منه أخذي إلى أي مدينةٍ غير هذه، وحين أصرَّ أن أحدد مدينةً بعينها أجبته دون تردد: «خذني إلى أقرب مدينة فيها ساحةُ خردوات».

أشفورد – إنكلترا Ashford-England |

«هذه أشفورد. أعرفُ هنا ساحةَ خردواتٍ كبيرة، ستجد فيها حتماً ما تبحث عنه» قال السائق، فلم أرفع رأسي من بين يديّ لأرى البلدة التي دخلناها، كان جسدي لا يزال يرتجف، والطنين يأكل رأسي.

ما إن خطوتُ أولى خطواتي داخل ساحة الخردوات حتى جأرتُ بالبكاء، ورحتُ أركض بين أكوام الحديد حانياً ظهري مجدّفاً بذراعيّ حول ركبتيّ كغوريلا تبحث عن طفلها المخطوف.. انزلقت قدماي بينما أعدو فوق بركةٍ صغيرة خلّفتها أمطارُ الليلةِ السابقة، فهويتُ ككفٍ عملاقة وصفعتُ الأرضَ بصدري، شُلّت رئتاي وانقطع نفَسي.. تمنيتُ أنه الموت بينما أغيب عن الوعي.. لم أكن لأحلم بميتة أجمل من هذه.

شهقتُ بارتياع وفززتُ عن الوحل منتفضاً أغرفُ الهواءَ بفمي بلهاثٍ حثيث كمن يخشى نفاده، إلى أن امتلأت رئتاي وهدأ ارتعاشُ جسدي. ارتقيتُ تلة الخردوات التي كنت أعدو نحوها قُبيل أن أنزلق، وجلستُ على قمتها خائر القوى، ورحت أجولُ بعينيّ في الساحة الملأى بعشرات الأكوام المترامية في أرجائها.

لاحظتُ ارتباكَ جسده حين وقعت عليه عيناي، أظنه تهيأ للهرب لكن ساقيه خانتاه، فتسمر في مكانه محدقاً بي، منتظراً مني النزول والانقضاضَ عليه بعد أن كشفتُ أمرَ مراقبته لي مذ دخلتُ ساحته كثورٍ مطعون.

كان ذلك حارسَ الخردوات، رجلٌ قصيرٌ سمين بلا عنق لم يتجاوز الأربعين من عمره. طال تحديقنا ببعضنا البعض حتى ظننت أن لن ينتهي الأمر، نزلت ومشيتُ نحوه إلى أن شعرته يهم ثانيةً بالهروب فتوقفتُ من فوري وسألته إن كان هو صاحب هذه الساحة، لم يجبني، كان يحدق في عينيّ بارتياعٍ لم يستطع إخفاءه، فأدركت أن الذي يخيفه الآن بعد خوفه من خواري وركضي الهائج في الساحة هو لونُ عينيّ، لقد كانتا حمراوين كجمرتين من حكاك البرادة فيهما. قلتُ له مطمئناً: «لا تخف، لا أنوي إيذاءك.. أريدُ العمل هنا مقابل المأكل والمبيت».

«ما الذي تعنيه بأنك أقوى مما يوحيه مظهرك وسنك؟» سألني مالكُ الخردوات صباح اليوم التالي متفحصاً جسدي الهزيل من خلف نظارةٍ متسخة العدستين.

«عنيتُ أن باستطاعتي حمل أوزان ثقيلة».

«أنا أيضاً أستطيعُ هذا، أرني عن أي أوزانٍ ثقيلة تتحدث» قال ضاحكاً بسخرية.

استفزتني ضحكته، فأجبته بغضبٍ كتمتُه «اختر ما تشاء مما في هذه الساحة من حديد، وسأسحبه إليك».

حكّ الحارسُ رأسهُ مبتسماً، أما المالك فقد رأى في عيني ما لم يستطع الحارسُ رؤيته، فقال هازاً رأسه بإعجاب «حسناً، أترى محرك السيارة المركون بجانب الكومة رقم 3 هناك؟ اذهب واسحبه إلى الكومة 8».

تظاهرتُ ببعض المشقة وأنا أسحب المحرك الثقيلَ خلفي، بينما أسمع قهقهة المالك الذي راح يصيح كالمجنون مصفقاً بين عماله الذاهلين: «لا أصدق هذا! عليك اللعنة، إنك بقوة بلدوزر، عظيمٌ أنت عظيم».

أن يبيت معك في تلك المنطقة المقطوعة شيخٌ غريبُ الأطوار عيناه حمراوان سمعتَ منه صوتاً كخوار ثورٍ هائج، هو أمرٌ يمكن تحمله فقط إن كنت تجهل امتلاكه لقوة بلدوزر لعين. أظن

هذا ما كان يجول في ذهن الحارس في ثاني ليلةٍ بتُّها في كوخه الصغير في ساحة الخردوات، فاستعصى عليه النوم وظل يتقلب في فراشه حتى الصباح.

لم يمض وقتٌ طويل حتى ترك العملَ متذرعاً بعثوره على وظيفةٍ أخرى، فصرتُ أنا الحارسَ والعامل الوحيد لدى «ألتون» بعد أن استغنى عن عماله الثلاثة واحداً تلو الآخر كلما ازداد يقيناً بألا حاجة لتكبّدِ دفع أجورهم بوجود عاملٍ بقوّتي وحماسي.

«لا أحد الآن يشاركني جنتي هذه» حدّثتُ نفسي بسعادةٍ غامرة عندما رحل آخرُ العمال. كان «ألتون» لا يحضر إلا بضع ساعاتٍ كل يوم، ثم يتركني أكملُ ما أوكلَ إليّ من مهام نقلٍ وتعزيلٍ وفرز.

عشتُ بين البشر طوال سنين حياتي الماضية بجسدي وحسب، أما روحي فكانت في عزلةٍ دائمة، تنجح أحياناً بسحب جسدي وراءها إلى تلك العزلة، وتكتفي أحياناً أخرى بالذهاب وحدها متخففةً من كل شيءٍ حتى جسدي.

لكن العزلة تلك لم تهبني يوماً إحساسَ السعادة، إذ كانت هروباً من شيءٍ إلى اللاشيء.. على الهروب دائماً أن يكون نحو نقيض ما هربنا منه إن أردنا السعادة، فكان عليّ الالتجاءُ لما يشبهني في هروبي من الذي لا يشبهني.

كان يمكن لهذا الأمر أن ينجح في علاقتي بـ «سنتي» لكنني أخطأت حين ادّعيتُ غير جنسي في هروبي إلى بني جنسي، لقد كنت شيئاً مزيفاً فحصلتُ على سعادةٍ زائفة.

ها أنا الآن إذاً أذوق طعم السعادة الحقيقية لأول مرةٍ في حياتي.. أعيش على حقيقتي بين كائنات تشبهني وأصدقاءٍ صادقين.

جمعتُ من أحببتهم من الخردوات الحديدية في كومةٍ صغيرة وضعتها قرب الكوخ، ورحتُ أمضي بصحبتها أمتع أوقاتي وأكثرها سعادة، إلى أن بدأ يحدث ما غاب عن بالي رغم حتميته: بيعُ أصدقائي واحداً تلو الآخر.

ربما تكون قد جربتَ ألم هذا الأمر حين كنتَ تفارق أصدقاءك من العملاتِ رغماً عنك، لكن أظنك لم تكن تشعر بنفس مقدار ألمي، إذ كنتُ بنفسي أجرّ أصدقائي وأحملهم لمن سيبعدهم عني إلى الأبد.

كومة الأصدقاء تلك كانت المرآةَ التي رأيتُ فيها سعادتي الحقيقية، فإذا بها تزداد شرخاً تلو شرخٍ مع رحيل كل صديق.

«عليّ أن أحمي من تبقى منهم» قلتُ كاذباً على نفسي حين حملتهم إلى داخل الكوخ، فيما الحقيقة أنني كنت أحمي ما تبقى لي من أسباب السعادة.

كانوا محمصةَ خبزٍ زرقاء، ومحرك قاربٍ صغير بمروحة صدئة، ومكواةً قديمة، ومفتاحَ ربطٍ كبير أحمر اللون، برأسٍ أسود.

تزايد عددنا شيئاً فشيئاً داخل البيت، إذ كنت كلما وفدَت إلى أكوام الخردوات دفعةٌ جديدة ووجدتُ فيها كائناً أعجبني، ضممته خلسةً إلينا.

بعد ما يقارب العامين، استيقظتُ ذات ليلةٍ على صوت سعال المحمصة ورائحة الدخان المنبعث منها، فهرعتُ أبحث عن زيتٍ لأسقيها، وما إن خطوتُ بضع خطوات في العتمة حتى تعثرتُ بآلةٍ كاتبة كانت نائمةً بجانب السرير، فهويتُ على الأرض وكاد رأسي أن يُفجّ. كانت الخردوات تملأ أرجاء الكوخ «كيف لم أنتبه لمثل هذا الأمر؟!» حدّثتُ نفسي مذعوراً.. «ماذا لو فكر ألتون ذات يوم بدخول الكوخ؟ كيف سأخفي عنه كل هذه الخردوات؟».

نهضتُ عن الأرض منتفضاً وأشعلتُ الضوء من فوري، وطفقت أدس الخردوات تحت السرير ووراء الكنبة وداخل الخزانة والثلاجة وفي كل مكان يصلح للاختباء، لكن العدد كان أكبر بكثير من أن تستوعبه المخابئ، كما كان بعضها كبيرَ الحجم لا يمكن إخفاؤه.. ازداد هلعي.. عليّ إيجاد حل سريع قبل أن يُكتشف أمري في أي لحظة.

رحتُ أذرع الكوخ جيئةً وذهاباً مفكراً بالحل، يتقافز ورائي طقمُ طناجر حمراء اختلط صوتُ قرقعتها بصوت سعال المحمصة، الأمر الذي زادني توتراً فانفجرت صارخاً: «اخرسوا جميعاً» توقفت الطناجر عن ملاحقتي، وكتمت المحمصة المسكينة سعالها دون أن تستطيع كتمَ دخانها، واستيقظ الجميع على صرختي، لكن أحداً منهم لم يجرؤ على سؤالي ما الأمر. كانوا جميعاً ذاهلين غير مصدقين، كانوا خائفين.. فبكيتُ حين رأيتُ في وجوههم ذاك الهلع.

جلستُ على الأرض مسنداً ظهري إلى جنب السرير، وأجهشتُ بالبكاء ملقياً وجهي بين ركبتيّ.

«ما الأمر يا ليو؟» قالت الآلة الكاتبة من تحت السرير خلف ظهري حيث خبأتها.

«أخشى أن يكتشف ألتون أمر سرقاتي فيطردني من عملي فأفارقكم إلى الأبد» أجبتها بعد أن هدأتُ قليلاً.

«أي سرقات؟» سألتني مستغربةً.

-سرقتي لكم.

-لكنك لم تسرقنا، فنحن لا نزال عنده!

-أجل، لكنني أدخلتكم الكوخ دون أن أستأذنه.

-فلماذا لا تصارحه بالأمر قبل أن يكتشفه ويظن حقاً بأنك سارق؟

-إن أخبرته بالحقيقة فهناك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن يظنني مجنوناً أو سارقاً يدّعي الجنون، وفي كلتا الحالتين سيطردني.«

-ما الحل إذاً؟

ظل سؤالها ذاك يتردد في أذني بصوتها الذي يشبه صوت نقر مفاتيحها أثناء الطباعة.. ما الحل إذاً؟.. ما الحل؟

«لماذا لا نهرب؟ ضعنا في شاحنة ألتون واهرب بنا يا ليو» قال محرك القارب مع طلوع الفجر.

لم تكن قيادة الشاحنة على الخط السريع بالصعوبة التي ظننتها، إذ استطعتُ سريعاً ضبط مسارها ومنعها عن الترنح الذي تسبب به ارتباكي بادئ الأمر، وما إن خرجنا من آشفورد حتى علت أصواتهم في المقطورة ابتهاجاً ورحنا نردد سويةً بسعادةٍ غامرة الأغاني التي تعلمناها من القطارات.

«أوشك وقودي على النفاد» غمغمت شاحنة ألتون بعد ساعتين من المسير. علمتُ من نبرتها بأنها غيرُ راضيةٍ عما فعلتُه بصاحبها، لكنني لم أكترث بموقفها ذاك.. كل الذي همني حينها أن أجد سبيلاً لملء خزان الوقود في ظل خلوّ جيبي من النقود. توقفتُ عند مدخل أول محطة وقود صادفتها وبقيتُ جالساً وراء المقود أبحث في رأسي عن حل: «عليّ التزود بالوقود بأي طريقة كي أستطيع مواصلة السير إلى أن أجد مكاناً مناسباً أخبئهم فيه، وبعدها أتخلص من الشاحنة التي ستبحث عنها الشرطة بلا شك فور تقدم ألتون ببلاغ عن السرقة».

ترجّلت من الشاحنة وذهبتُ إلى عامل التعبئة، أخبرته بحاجتي فأشار عليّ بالتحدث إلى مدير المحطة. بدا أن ذلك المدير قد اعتاد مصادفة من يحتاجون الوقود ولا يملكون ثمنه، إذ لم يستغرب

طلبي وعاجلني بالسؤال عما أستطيع دفعه بدل النقود.

«صدقني لا أملك الآن شيئاً غير ثيابي هذه وتلك الشاحنة» أجبته مشيراً إلى الشاحنة.

«ما الذي تحمله فيها؟» سألني ماطاً عنقه الطويل إلى أعلى محاولاً رصدَ ما فيها بوضوح.

«إنهم.. أقصد إنها كومة خردوات».

«أليست لك؟» قال متفرساً وجهي.

«بلى،إنها بضاعتي.. لكنها..».

«هيا اذهب وأحضرها إلى هنا، لأرى إن كان فيها شيءٌ ذو قيمة» قال آمراً.

بيدٍ ترتجف، أدرتُ مفتاح تشغيل الشاحنة بعد أن انتهى العامل من ملئها بالوقود.. شعرتُ بشلل في قدميّ فلم أستطع الضغط على دواسة البنزين.. كان الصمت لا يزال مطبقاً في المقطورة، لم يصدقوا أني تخليتُ بهذه السهولة عن واحدٍ منهم مقابل الحصول على بعض الوقود.. ازداد ارتجاف يديّ.. شددتُ بهما أكثر على المقود محاولاً وقف رجفهما، فارتجّت الشاحنة بأسرها. أفلتُّ المقود ونطحته بجبيني، فصدح بوق الشاحنة بعويلٍ يشبه صافرات الإنذار، امتزج بصرخةٍ طويلةٍ أطلقْتها أفزعَت كلَّ من كانوا في المحطة. ترجلتُ بهياجٍ من الشاحنة ورحتُ أركض في المحطة لاكماً كل من اعترضوا طريقي، إلى أن صارت عنق المدير الطويلة بين يديّ. هز وجهه بارتياع كأنه يسأل عن معنى ما أقول، أعدت قولي أكثر من مرة، كنت أطالبه بأن يعيد إليّ محرك القارب.. لكن الكلمات ظلت تخرج من فمي بلغة الحديد. لم أصحُ من هيجاني إلا عندما صرخ عاملٌ كان يحاول تخليصه من بين يدي: «اتركه.. إنك تخنقه.. اتركه.. ستقتله».

أرخيت يديّ عن عنقه فهوى متحشرجَ الأنفاس، جثا العامل بجانبه ليساعده على استعادة أنفاسه صارخاً بوجهي: «كدتَ أن تقتله أيها المجنون! إن كنت تريد استعادة محركك اللعين فهو لا يزال هناك في مكانه».

خرجتُ بهدوءٍ من المكتب ومشيتُ نحو المكان الذي وضعتُ المحركَ فيه.. ولم أنهض إلا عندما سمعتُ الشرطيّ يأمرني بالنهوض ورفعِ يديّ مصوباً سلاحه نحوي.

سجن ميدستون – إنكلتراHM Prison Maidstone-England |

لم أستطع الإجابة على أسئلة المحققين ولا التحدث إلى المحامية التي أوكلتها النيابة للدفاع عني، ولا الاستجابة لنصيحة القاضي الذي قال لي بإشفاقٍ عند بداية الجلسة إن امتناعي عن الكلام لن يكون بصالحي. «لست أمتنع أيها الوغد، لكن لساني لم يعد قادراً على نطق حروفكم» أجبته بعينيّ الجامدتين.

كانت التهم الموجهةُ إليّ كثيرة، فصدر الحكمُ بحبسي خمسة أعوام.

في الممر الطويل المفضي إلى زنزانتي، بينما كان يسوقني الشرطيان بجانب رتلٍ من الأقفاص وقف وراء قضبانها المساجينُ لمشاهدة موكب وصول الوافد الجديد، انتابتني رغبةٌ عارمةٌ في القتل.. كانت يداي ترتجفان تحفزاً لكسر القيد والانقضاض على الشرطيين وتهشيم وجهيهما بقبضتيّ الحديديتين إلى أن يسقطا جثتين هامدتين، لكن ذلك لم يكن كافياً، فالنار المتلظية في صدري ما كانت لتهدأ قبل أن أقضي على جميع من في السجن من البشر، وهو انتقامٌ كان سيكلفني حياتي بلا شك قبل أن أنعم حتى بإتمام بدايته.



سجن ميدستون – انجلترا HM Prison Maidstone

تخيلتُ جثتي غارقةً بدمائها على أرضية الممر القذرة، يمطرها المساجين باللعنات والبصاق من خلف أقفاصهم.. سرى الرعبُ بداخلي فعدلتُ سريعاً عن الأمر، وأطرقتُ رأسي إلى أن أُقفل عليّ بابُ الزنزانة.

كان لعزلتي هذه المرة طعمٌ مختلف، إذ كانت عزلةً قسرية فرضتها عليّ قضبانُ الزنزانة وقضبانُ الحقد التي طوّقت قلبي وأخذت تتعالى باضطراد إلى أن بات مستحيلاً أن يجتازها أيُّ إنسيّ، فصرتُ أتحاشى المساجين والسجانين على حدٍّ سواء خلال أوقات الطعام وساعات الرياضة والاستراحة في ساحة السجن، إلى أن لقّبوني بالأخرس غريب الأطوار.

لم تهدأ يوماً رغبتي بقتلهم جميعاً، حتى الذين كانوا ودودين معي لم يفلح لطفهم في ثنيي عن اشتهاء قتلهم، فصرتُ أتلذذ كل يوم بتخيل طريقة قتل أحدهم.. فواحدٌ أكسرُ عنقه بينما يقف أمامي في طابور الصباح.. وآخر أحطم رأسه فوق المغسلة فتختلط دماؤه برغوة الصابون البيضاء التي تغطي شعره.. وثالثٌ أشقُّ فمه بكلتا يديّ تحت دفق ماء الدوش إلى أن ينفجر بطنه.. وأغرسُ ملعقةً في صدرِ أحدهم وأغرفُ جزءاً من قلبه وأطعمه إياه.. وكنتُ أحياناً أجمعُ المساجين ليلاً في الساحة، وأعطي كل واحدٍ منهم بندقيةً، وأصفُّ مقابلهم بقيةَ المساجين، كلٌّ مقابل صديقه الحميم،

وأسلط أضواء الكشافات على وجوههم كي ينظروا في عيون بعضهم البعض قبل أن آمرهم بإطلاق النار.. ثم أجبرهم على النوم عراةً بأحضان قتلاهم حتى الصباح. أما اللذة الأعظم فكانت حين أعطي كل واحدٍ منهم سكيناً وآمره بذبح من يأتي لزيارته من أفراد عائلته، فيعودُ إلى زنزانته بجسدٍ ثقيلٍ مرتعش يفغرُ باكياً كالمجنون، حاملاً بيده سكيناً يقطرُ من نصلها اللامع الأخاذ دمٌ دافئ.

إن الذي أبلغَ حقدي على البشر ذروتَه، هو عدمُ سماحهم بإدخال المعادن إلى السجن.. كم تمنيت لو كان ذلك مسموحاً، وكان بوسع المعادن أن تسير. كنتُ أستيقظُ أحياناً على صوت الشرطي ينادي قائلاً:

«انهض يا ليو.. لديك زيارةٌ من محمصة خبزٍ زرقاء».

«ليو.. ثمة مكواةٌ ومحركُ قارب جاءا لزيارتك».

جربتُ تعويض ذلك الشوق بالتحدث إلى الملاعق والصحون الحديدية غير مرةِ أثناء تناول الطعام، لكن أحاديثها كانت دائماً مملةً وساذجة فكففتُ عن الأمر. كما جربتُ التحدث إلى القضبان وباب الزنزانة، لم تكترث القضبان بحديثي إذ كانت دائمة الانشغال بإحصاء نفسها كأعمدة الطرقات في ديجون. أما باب الزنزانة فلم يكن يتحدث إلا ليلاً وكانت أحاديثه كئيبةً كآبة السجن سوداويةً كعتمته، بلهاء أحياناً بلاهة ضحكته التي كان يطلقها بصوته الجاف كالمجرشة كلما انفتح.

بعد أن قتلتُ جميع من في السجن بمخيلتي مراراً وتكراراً بكل ما أسعفتني به تلك المخيلةُ من أساليب، وبعد أن وصل كرهي للبشر إلى حد يستحيلُ معه القبول بأن أعود واحداً منهم، وبعد أن استيأست من العثور على أيِ كائنٍ حديدي أتخذهُ صديقاً يؤنسُ وحدتي.. بدأتُ أفقدُ رغبتي بالحياةِ شيئاً فشيئاً حتى غدوتُ جثةً حية داخل خزان عزلةٍ ضيق كالخزان الذي غصتُ في مائه الآسن مختبئاً من الشرطة في ديجون. لكن الصدأ هذه المرة لم يأكل مفاصلي، بل راح يلتهم عقلي بشراهة الضباع.. ربما أصابني ضربٌ من الجنون.. أو هكذا على الأقل ظن من كنتُ أوقظهم بصراخي كل ليلةٍ كلما أفزعتني هلوساتي. إلى أن أيقظتني ذات ليلةٍ صرخةٌ أتتني من الزنزانة المجاورة يستنجدُ صاحبها قائلاً: «أخرجوني من هذا القفص اللعين» في بادئ الأمر ظننتني أهذي، إذ لم يكن المستجيرُ إنسياً بل كان معدناً.. «أجل هذا صوتُ معدن!» حدّثتُ نفسي بسعادة غريقٍ لاح له ضوء سفينةٍ مقبلة. حبوتُ لاهثاً كجروٍ سعيد نحو الجدار الفاصل بين الزنزانتين، وألقيتُ أذني منصتاً بطرب لنداءات استغاثتك. وفور أن تيقنتُ أن الأمر حقيقي، تحدثتُ إليك من خلف الجدار حتى هدأ روعك، ثم سرقتُك من ذلك السجين الجديد في اليوم التالي في قاعة الطعام.

-فكلانا إذاً انتشلَ الآخرَ من بحر هلوساته!

-أجل، وكلانا كان يهلوسُ بالخلاص.

-خلاصي من جسدي الحديدي.

-وخلاصي من جسدي البشري.

-فخذ جسدي وأعطني جسدك!

-ليتنا نستطيعُ يا يورو.

-فلا خلاص إذاً..

-أجل، لا خلاص .لكنني سأحقق حلمك بالذهاب إلى إيطاليا، سأسافر بك إلى هناك .لا حاجة بك إلى منطادٍ أو جناحيّ بومةٍ كي تذهب إلى هناك، سأحملك بنفسي وأجول بك في شوارع روما بين المتاحف والتماثيل، ثم أعيدك بعدها إلى اليونان إن أحببت.

-أحقاً ستفعل هذا لأجلي يا ليو؟

-أقسمُ أني سأفعل.
-لكن ثم ماذا؟
-ما الذي تعنيه؟
-سأظل حبيس هذا الجسد وتظل أنت حبيس جسدك.
-أجل، لكنك على الأقل تكون قد حققت أحد أحلامك.
-وماذا عنك أنت؟ أما لديك أحلامٌ أخرى تتمنى تحقيقها غير حلم الانعتاق المستحيل؟
-بلى لدي ..أريدُ استعادة أسرتي.
-تسرق الخردوات مرةً أخرى؟!
-أجل، حتى وإن اضطررت إلى قتل ألتون.
-كم مضى على حبسك؟
-لا أعلم ..ربما نصفُ عام.
-ستخرج إذاً بعد أربعة أعوام على الأقل .عندها لن تجد منها شيئاً لدى ألتون، ستكون كلها قد بيعت.
-اللعنة !هذا صحيح ..ما أغباني ..!علي الإسراعُ إذاً.
-الإسراعُ بماذا؟ أنسيت أنك سجين؟
-سأهرب غداً حين نكون في ساحة السجن.
-أجننت؟ سيقتلونك قبل أن تجتاز السور .أرى أن تصبر حتى تُنهي محكوميتك، ثم تجد لنفسك عائلةً جديدة حين تخرج، فلا أكثر من الخردوات في هذا العالم .يمكنك شراء ما تشاء منها، عوضاً عن سرقتها بعد قتل صاحبها ..أحقاً يمكنك أن تقتل؟ ..ليو ..!هل نمت؟ ليو!
-لا، لم أنم ..أفكرُ بسبيلٍ للهروب ..أفكر ..لا بد من سبيل.
-لن تستطيع !صدقني هذا مستحيل.
-اصمت يا يورو ..اصمت ودعني أفكر بهدوء.
-حسناً، فكر .أتدري يا ليو؟ ..لم يخطر ببالي يوماً أن يكون لي صديقٌ جديد بعد كوستا..

إن كان هراءُ البحرِ أحدَ مُناك
سبونج بوب مربعُ السروال
فاسقط فوق المركب وتخبّط كالأسماك

-أجل يا يورو ..أجل ..!إنه كوستا!
-ما به؟
-سأبتلعك كما فعل كوستا، فينقلونني إلى المستشفى ..سيكون الفرارُ من هناك أسهل بكثير!
-تقصد سينقلون جثمانك، فابتلاعي قتلَ كوستا.
-لا يا يورو، لقد قتلتَه لأنه طفل ..أعني لأن حلقهُ كان صغيراً فعلقتَ فيه.
-فلماذا سيسعفونك إن لم أعلق في حلقك؟

-ستعلق يا ليو ..أعني سأعلقك في حلقي مستخدماً جاذبيتي، وأتظاهر بالاختناق ..عندها سيسارعون إلى إسعافي.

-لكن ماذا لو اختنقتَ حقاً؟ أرجوك يا ليو، لا أريد ..يكفيني ذنبُ قتل كوستا.

-لقد حسمتُ أمري، سأبتلعك غداً في صالة الطعام أمام المساجين.

-لا، هذا جنون، لن أسمح لك بفعل هذا.

-أحقاً؟ وكيف ستمنعني؟ ها ها ها ..أم ستطير بجناحي بومتك هارباً مني؟

-هل ستجبرني على فعل أمر لا أريده؟

-ومتى أُعطيتَ حرية الاختيار؟ ألم تكن على الدوام مسلوبَ الإرادة؟ أليس هذا ما تحلمُ بالخلاص منه؟

-كان هذا مع البشر ..ظننتك مختلفاً عنهم، بل ظننتك لست منهم.

-بالطبع لستُ منهم !لكنك الآن أداتي الوحيدة في الهروب من هذا المكان، فإذا خرجنا من هنا أعدك بألا أجبرك على فعل شيء ..بل سأكون أنا أداتك لفعل كل ما تشتهيه. ألم أعدك بأن آخذك إلى روما؟ وسآخذك إلى اليونان أيضاً، وإن شئتَ أخذتك إلى بلغاريا لزيارة قبر كوستا، سنضع عليه إكليلاً كبيراً ..سآخذك أيضاً إلى أمستردام، لنُحرر الين الياباني من درج بائع الزهور .سأكون جناحي بومتك يا يورو، أطيرُ بك إلى حيث تشاء ..كن جناحيّ لمرةٍ واحدةٍ فقط، أكن جناحيك مدى الحياة.

-لن تفعل لي شيئاً من كل هذا يا ليو، ستنشغل بأسرتك عني، وفي أحسن الأحوال ستضمني إليها لأكون واحداً من أفرادها، فأمضي بقية العمر بين معادن تتحدثُ اللغة البدائية ..أي ستكون حياةً أسوأ بألف مرة من هذه التي أعيشُها.

-لا يا يورو، سأجمعهم فور هروبنا وأخبئهم في مخزنٍ ما أستأجره، ثم آخذك إلى حيث تشاء وحين ننتهي من رحلاتنا أعودُ إليهم.

-حسناً يا ليو، افعل ما تشاء ولستَ ملزماً بالوفاء بوعدك ..كل ما أرجوه منك ألا تحبسني مع خردواتك، وألا تلقيني في مكانٍ يصعب فيه العثورُ علي.

-بل سأفي بوعدي يا يورو ..إنه أمرٌ أحبُّ فعله لأجلك، وسأفعله.

-ها قد أتت تلك البومة ..انظر إليها ..راقب ما ستفعله!

-ما الذي ستفعله؟

-انتظر وسترى..

-يا إلهي !ما هذا الذي ألقته على القبر؟

-إنها قطعةٌ معدنية .تأتي هذه البومة كل ليلةٍ حاملةً بمخالبها أي شيءٍ معدنيّ، وتلقيه فوق ذلك القبر، ثم تمضي.

-شيءٌ غيرُ معقول ..!قبرُ من ذاك؟

-قبرُ رجلٍ مجنون ..مات اختناقاً في السجن.

** انتهت **